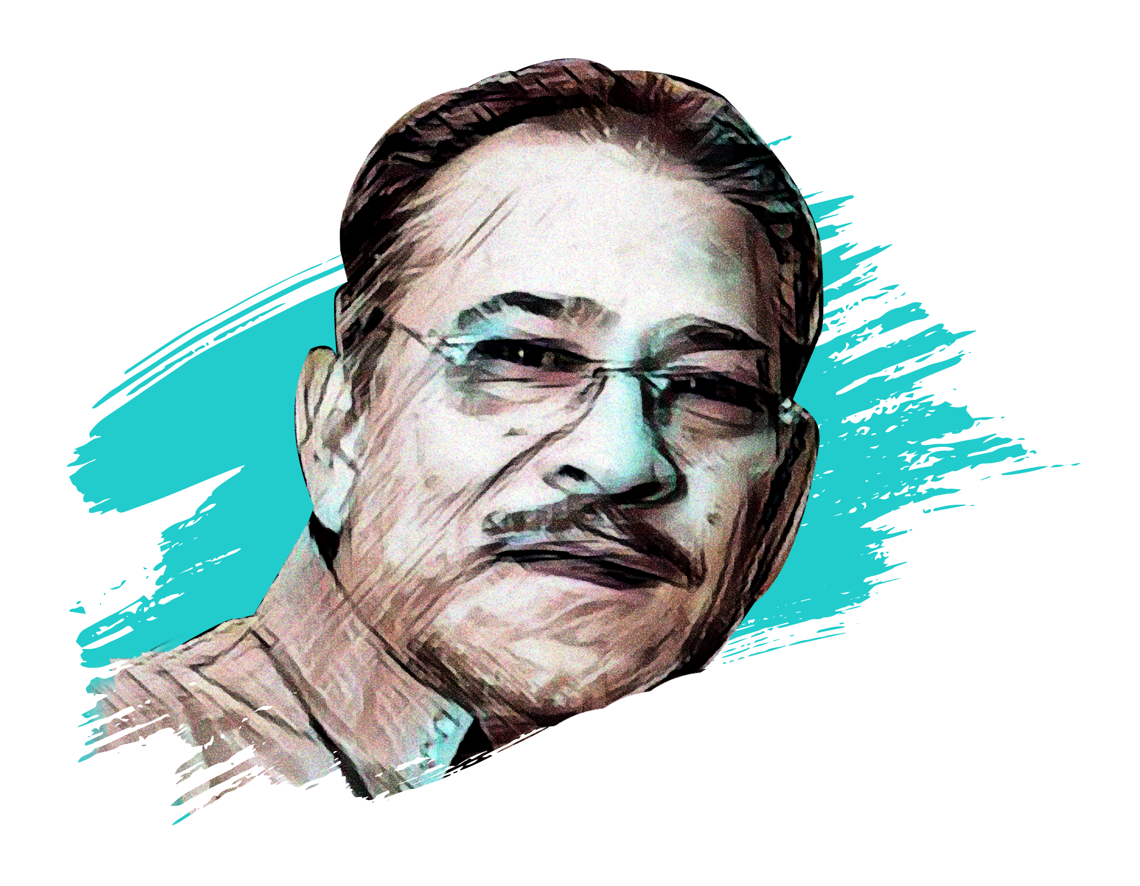
مدخل إلى فهم الميثولوجيا التوراتية



سيد القمني

مدخل إلى فهم الميثولوجيا التوراتية

تأليف
سيد القمني



مدخل إلى فهم الميثولوجيا التوراتية

سيد القمني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٨ ٣٢٥٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

مقولات تمهيدية

فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلًا: لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ.

(سفر التكوين: ١٥–١٨)

لا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ، مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ.

(المسيح: إنجيل متَّى: ٥–١٧)

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

(قرآن، البقرة: ٤٧)

ولسنا ننقل من الإسرائيليات، إلا ما أذن الشارع في نقله.

(ابن كثير: البداية والنهاية)[١]

[١] ابن كثير: **البداية والنهاية**، دار الكتب العلمية، لبنان، ط٤، ١٩٨٨م، مج١، ص٥.

أنه ليس من شيء يستطيع أن يُبقي الحركة الصهيونية حية وفاعلة، إلا بالإيمان الراسخ ... وأن هذا الإيمان يجب أن يرتكز على فلسطين وحدها، وأن أي انحراف عن فلسطين، يكون بمثابة الكُفر بهذا الإيمان.

(حاييم ويزمان: المذكرات)[٢]

إن الحركة الصهيونية، تُناضل من أجل فكرة عظيمة، وتُمثِّل تراثًا عظيمًا يكِنُّ له الغرب المسيحي، أعظم تقدير.

(لويد جورج: المذكرات)[٣]

والخضوع الروحي لأمة أخرى، هو شر أنواع الاستعمار.

(د. جواد علي: المفصل)[٤]

---

[٢] Trail and Error, The Autobiography of chaim Weizmann, Harper and Bros, New York, 1948, p. 110.

[٣] Ibid., p. 158.

[٤] د. جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، د.ت، ج٦، ص٥٨.

تأسيس ١

حوالي منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، وقت كانت مصر قد تحوَّلت إلى دولة عظمى على الكوكب الأرضي، منذ ما يزيد على خمسة عشر قرنًا من الزمان، ووقت كانت فيه بلاد العراق القديم قد انتقلت من نظام الدولة المدينية المتعددة، إلى دولة مركزية كبرى، تتالت على الحكم فيها عدة دول تركت بصماتها الحضارية في وادي الرافدين، من السومريين إلى الأكاديين إلى البابليين إلى الآشوريين، ووقت بدأ الكنعانيون في فلسطين يتحوَّلون عن نظام المشتركات المعبدية إلى نظام الدول المدينية على شكل ممالك صغيرة متجاورة، بينما شرع فرعهم الشمالي على الساحل اللبناني، والمعروف بالفينيقي، يشرع أشرعته على البحر ليغزو عالمه المجهول، ويقيم مستعمرات متفرقة على سواحله حتى الأطلسي غربًا. في هذا الوقت من الزمن، وفدت إلى بادية الشام موجاتٌ بدوية متبربرة من البوادي البعيدة،[١] تتدافع متلاطمة على صفحة المنطقة فيما عُرِف بالقبائل الآرامية. وحين كانت الموجات الآرامية لم تزل في طور التدفُّق، ترسل قرون استشعارها من بادية الشام، تتحسَّس ما حولها في بلاد الخصب، برز من رغاء بطونهم وأفخاذهم تلك القبيلة التي حطَّت رحلَها، عطشى جوعى، شرقي فلسطين، وحلا لها تعدد الأسماء، فعرفها التاريخ باسم العبريين، وبني إسرائيل، وشعب الله المختار، يدفعهم الطمع إلى الجموح في الطموح، للاستيلاء على مناطق الخصب الشاسعة من حولهم.

وعلى العادة البدوية، تصوروا أن بالإمكان الإغارة كرًّا وفرًّا، وفق التقاليد البدوية العتيدة، وأخلاقيات السلب والنهب، لكنهم وجدوا أنفسهم هذه المرة إزاء نوع جديد من

---

[١] د. حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، القاهرة، ١٩٦٤م، ج١، ص٨.

النظم لم يألفوه، أمام دول وممالك وحضارات كبرى، ذات جيوش منظَّمة وحكومات مركزية، تتحرك كل أطرافها للعمل بمجرد أن يجذب الملك طرف الخيط داخل قصره، مما جعل الجوعى القادمين يتوقفون للتفكير مليًّا في الوسائل المناسبة لاختراق هذه الأسوار المنيعة، والأنظمة الصارمة؛ فاستكانوا على حدود الممالك المجاورة، وتعاملوا كمحطات إنذارٍ مبكرٍ لهذه الممالك إزاء أي تحركات متبررة حولها من بني جنسهم، مقابل ما تفيض به عليهم هذه الممالك من خيرات.

ومع الاحتكاك بهذه الحضارات المنتظمة في سلك المركزية، اهتدى القادمون، وأدركوا مبكرين، أن صروح الحضارة لا تخرج فجأة من الأرض بلا منابت أو جذور (وهم لا يملكون أيًّا من مقوماتها)، فقيام الكيانات المركزية يحتاج تماسكًا لا يتيسَّر للنظام الاجتماعي البدوي بفرقته، ويحتاج إلى تكاتف لجهود العمل البشري المتسق في خططٍ منظمة يصعب على الطبع البدوي، في تفرُّقه، استلهامه أو حتى استيهامه، إضافة إلى ما هو أهم من كل هذا، وأول مقومات الكيان المتماسك، وهو الأرض. ومن ثَمَّ كان لا بد من أرض أولًا، إلا أن الاستيلاء على أرض متكاملة البنيان الحضاري، جاهزة التسليم، أمرٌ غير ميسور تقف دونه هِممهم، لذلك توجهت هِممهم نحو خطة طويلة النَّفَس، تعتمد على التسلل الهادئ والبطيء من أضعف الثغرات المكنة في المنطقة. ولم يكن هناك أمثل من مجموعة الممالك الكنعانية المتفرقة لتحقيق الغرض؛ فمصر دون الجموح ولو في الخيال، وبابل وآشور ممالك تفرض هيبتها باقتدارٍ، وبالفعل بدأ التسرُّب البطيء والهادئ إلى الممالك الكنعانية، ليستقروا فيها كمواطنين من الدرجة الثانية، وكعصاباتٍ مأجورة على الحدود أحيانًا. وآنها بدأت الأرض تتماسك من تحتهم وتلتئم وتتكوَّن، وفق الخطة اللئيمة لقيام الكيان. والكيان ليس فقط أرضًا تجود بشبع البطون، وتئوي الجسد المنهك من ارتحاله وراء الكلأ، إنما هو أيضًا تراث وراسب لخبرات قديمة وعلاقات أقدم بالأرض وطبعها وطبيعتها، وناتج جدل زمني طويل بين الإنسان وبين هذه الأرض، فهو أيضًا تاريخ، ووعي بهذا التاريخ. وهنا لا مندوحة من الاعتراف لهؤلاء الغُبْر الشُّعْث أنهم كانوا الأصدق وعيًا بالتاريخ في المنطقة، وظلوا مفتحي الأعين والأذهان دائمًا عليه، بينما كانت المنطقة في طريقها إلى غفوات متلاحقة انتهت بسُباتها الطويل الحالي.

ومن هنا أخذ هؤلاء في تمثُّل تراث المنطقة، والتراث الكنعاني بشكلٍ خاصٍّ، وهضموه بجودة عالية، ثم بدءوا إعادة صياغته بشكلٍ جديدٍ، بما يخدم مصالحهم الآنية أوانها، والمستقبلية أيضًا، بوعي نفَّاذ لهذا التاريخ ودوره، مستثمرين في ذلك العُمْلَة صادقة الرنين، أقصدُ «الدِّين».

وبالدِّين كانت بداية تاريخهم، الذي لم يكن تاريخهم أصلًا، وبالدِّين كانت بداية تواجدهم كشعبٍ يحمل تراثًا عريقًا «يكِنُّ له الغرب أعظم تقدير» على حد تعبير لويد جورج، وبالدِّين كانت بداية لغتهم بعد أن تحوَّلوا عن آراميتهم الأصلية إلى اللغة الكنعانية، إمعانًا في المصداقية مع الوعي بتمثُّل التراث والتلاحم بالتاريخ، وهو ما اعترف به الكتاب المقدس، حيث أوضح، بلا التواء — برغم التواءاته ومنحنياته الخطيرة — أن اللغة العبرية هي «شفة كنعان»، أو لسان كنعان (أشعياء، ١٩: ١٨)، وبالدِّين وتفهُّمهم لدوره، وإمكانياته التي لا تنفد، كانت بدايتهم كأصل للتَّديُّن، فاحتكروا النبوات جميعًا في نسلهم وأصلابهم، وليس هناك شهادة لهم بالتفوق الأكيد سوى التسليم لهم بهذا الاحتكار، برغم أنهم بدءوا من ديانات المنطقة — كما سنرى — لكن بعد أن أدخلوا عليها دبلجة وبرمجة ذكية، فتحوَّلت إلى دين يجمع من المتنافرات هجينًا عجيبًا، يزداد عجبه عندما نجد العقول تقبله أحسن القبول، ليصبح صاحب السيادة على عقل المنطقة بلا منازع.

وقديمًا، وحديثًا، وربما لأمدٍ مُقبِل، كان الدِّين هو الأسلوب الأكثر فعالية وعملية، وقد تمكَّن العبريون من التضلع في فنونه، واستثمروه وفق برامج جدوى عالية الكفاءة والجودة، مع انتهاز لماحٍ لكل ما يطرأ في المنطقة من تغيُّرات على مختلف الأصعدة، لنشر القناعات المطلوبة بين أهلها، ومن هنا نفهم لماذا كانوا في عجلة من أمرهم لوضع كتاب مقدس (Bible)، جمعوا له حشدًا من كل ما وقع تحت أيديهم من ميثولوجيا المنطقة وتراثها، مع التدخل بما يلزم وقتما لزم الأمر، فكان هذا الكتاب مأثرتهم الوحيدة، لكنه كان الأوحد الثابت، بعد اندثار الحضارات الأصلية، وانقطاع أهلها عن تاريخها، بينما كانت للمقدس العبري منهلًا ومنبعًا، بحيث أثبت صلابة لا تُبارى، لا نجد لها سببًا سوى الوعي بالتاريخ والتواصل معه.

تأسيس ٢

وهكذا؛ وبعد أن تمكَّن العبريُّون من تهويد تراث المنطقة، وجعلوا جماعتهم وأسلافهم قطبَ الدائرة في كتابهم، فنسبوا بطولات الملاحم القديمة إلى آبائهم الأوائل أحيانًا، وأدرجوا الأبطال في الميثولوجيا القديمة للمنطقة ضِمن النسل العبراني أحيانًا أخرى، أو غالبًا ما كانوا يختارون البطل — أيًّا كان جنسه — ثم يصوغون له شجرة نسبٍ تولده من أسلافهم، فكان أن تلاقحت على صفحات الكتاب ثقافات شتى، أولدت هجينًا تعشَّقت فيه رواسب شعوب المنطقة، ولَعِب فيها اليهود دور البطولة المطلقة.

ولعلَّه من نافلة القول، وتكرار المعروف، أن هذا الكتاب لا يُعَد بحالٍ مصداقًا لما اصطلح على تسميته بـ «كلمة الله الثابتة»، ولدينا، وبين أيدينا، في مقدمة الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس، الصادرة سنة ١٩٦٠م إقرار واضح يقول: «ما من عالِم كاثوليكي في عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة منذ الخليقة، أو أنه أشرف على وضع النص الذي **كتبه عديدون** بعده، بل يجب القول: **إن ازديادًا تدريجيًّا حدث**، سبَّبته مناسبات العصور التالية، **الاجتماعية** والدينية.»

ومعلوم أيضًا، أن الباحثين التوراتيين، قد اختلفوا فيما بينهم، حول ضبط جمع مادة هذا الكتاب وتوقيتها، وأنه لم يُكتَب بيد مؤلفٍ واحدٍ في عصرٍ واحدٍ لجمهور واحد، بل قام بهذه المهمة مؤلفون كثيرون، في عصور متباينة، لجماهير تتباين مزيجًا ومزاجًا،

حتى امتدت هذه التفانين إلى أكثر من ألف عام، وقدَّر البعض تاريخ الانتهاء منها حوالي ٤٤٠ق.م،[١] وربما في تقدير آخر، حتى القرن الأول قبل الميلاد.[٢]

ولعل أشهر المدارس البحثية في التوراة، وهي مدرسة «فلهاوزن WILLHAWSEN»، التي أكدت أن تصانيف التوراة قد بدأ جمعها بعد عهد موسى بقرون، وأن الجُمَّاع والمصنفين كانوا مختلفين مزاجًا ومَشْربًا، ودلَّلت على ذلك بأدلة هامة، لعل أخطرها ولا يقبل جدلًا، أن اسم الإله وطبيعته وعلاقته باليهود، يختلف ما بين سفر وآخر، إضافة إلى تكرار القصص في الأسفار، مما يشير إلى أن المصنفين لم يلتقوا معًا، ليصفُّوا ما بينهم من خلافات حادة في التفاصيل، هذا مع فروق واضحة وعميقة إلى حد التنافر التام في اللغة والأسلوب بين هذه الأسفار.[٣] أما النسخة العربية، فتؤكد على غلافها أنه «قد تُرجِم عن اللغات الأصلية، وهي العبرانية (أصلًا الكنعانية)، واللغة الكلدانية (وما تحمله من تراث رافدي طويل)، واللغة اليونانية (وما حملته من علوم جامعة الإسكندرية وتراثها المصري العريق).»

وقد ساعد اليهود على الإحاطة بشكلٍ واسعٍ بتراث المنطقة وتحميله للتوراة، أن هناك ظروفًا أدت إلى ارتحالهم في مناسبات مختلفة إلى الرافدين وإلى مصر، مما أدى إلى زيادات وتراكمات اصطبغت مع كل ارتحال بلون جديد، مما أدى بباحث متحيز لليهود مثل «إيغار لسنر» إلى الاعتراف باحتواء التوراة على متنافرات عديمة الاتساق والتمازج، وقوله: «إن تابوت العهد، يعود بنا إلى مساكن آلهة **النيل** المتنقلة، وآثار السحر ترجع بنا إلى **مصر**، كلما تذكرنا قصة الطوفان والأرقام الغامضة **ببابل**، ويصير الإله البابلي جلجامش نمرودًا، وتصبح ثيران **آشور** المجنحة كروبيم العبريين، كما أن أسطورة الجنة، وشخصية الشيطان أهريمان وعالَم الملائكة ورؤساء الملائكة، تعيد إلى أذهاننا بلاد **الفرس**، ونتعرَّف على البعل في إله **الفينيقيين والكنعانيين** في أسماء إشبعل ومربعل. لقد كان الفلسطينيون الذين

---

[١] د. أنيس فريحة: **دراسات في التاريخ**، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٩٨، انظر أيضًا:
د. حسن حنفي: في هوامشه على ترجمة كتاب إسبينوزا رسالة في اللاهوت والسياسة، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م، ص٢٨.

[٢] فراس السواح: **مغامرة العقل الأولى**، دار الكلمة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ص١٠٨.

[٣] سبتينو موسكاتي: من عرض لآراء فلهاوزن بكتابه «**الحضارات السامية القديمة**»، ترجمة د. يعقوب السيد بكر، دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٥٧.

يُحتمَل أنهم وفدوا أصلًا من كريت، ينظرون إلى اليمامة أصلًا كإله، أما السمكة التي عُبِدَت في عسقلان، فتظهر في قصة يونان.[٤]

وكلام «لسنر» هنا كلام شديد العمومية والتسطيح، إلا أنه يشير إلى المعنى المقصود، ويؤكد وراثة اليهود، أو سلبهم، تراث الآخرين بشكل فاضح وضَحَ لدى «لسنر»، وهو المعروف بتحزُّبه لبني إسرائيل. إلا أن هناك دراسات أخرى أكثر علمية وتدقيقًا وتوثيقًا، قدمها جلَّة من العلماء الأجلاء، لعل أهمها وأنشرها وأحوزها للثقة، دراسات المصرولوجي «جيمس هنري برستد J. H. BREASTED» حول تأثير الحضارة المصرية وثقافتها القديمة في التراث التوراتي، ودراسات عالِم الآثاريات السومرية، «صموئيل نوح كريمر S. N. KRAMER» أحد أعلام أركيولوجيا الرافدين، حول تأثير السومريين المباشر، وغير المباشر — عن طريق بابل وآشور — في التوراة».

ويقول «برستد»: «إن الكنعانيين، الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين، كانوا قد اجتازوا مرحلة النمو المتحضر، تبلغ **أكثر من ألف سنة**، حينما غزا العبرانيون البلاد، وقد عرفنا من النقوش التاريخية، البابلية والمصرية القديمة، وكذلك من الحفائر الآثارية، شيئًا كثيرًا عن المدن الفلسطينية الراقية النامية، السابقة لعهد العبرانيين، كما كان للثقافة البابلية ... أثر هام خالد في فلسطين الكنعانية. وعن طريق الكنعانيين، بوجه خاص، وصل أثر البابليين في الفن والأدب والدين إلى العبرانيين، يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان، منذ زمن بعيد، واقعًا تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة؛ فقد بدأ المصريون يبسطون سيطرتهم على الساحل الفينيقي قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين **بأكثر من ألفي سنة**، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة ٢٥٠٠ق.م. ولما فتح المصريون آسيا الغربية، ووصلوا في فتحهم إلى نهر الفرات في **خلال القرن السادس عشر** ق.م، بقيت فلسطين مستعمرة في أيديهم **أكثر من أربعة قرون**. والواقع أنهم حكموا فلسطين **مدة قرنين** بعد دخول العبرانيين فيها، **وبذلك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية في القرون التي احتلتها فيها مصر**، فلما غزاها العبرانيون، كانت قد اصطبغت مرارًا وتكرارًا بالعناصر المصرية.»[٥]

---

[٤] إيفار لسنر: **الماضي الحي**، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م، ص١٤٢.

[٥] جيمس هنري برستد: **فجر الضمير**، ترجمة سليم حسن، مكتبة مصر، د.ت، ص٣٧٢.

وغاية ما يريده «برستد» هنا، بوضوح، هو القول: إنَّ العناصر الثقافية الكنعانية، حتى التي أثرت في اليهود الغزاة، تعود بدورها إلى أصول مصرية ورافدية، لذلك يستطرد «وكان من نتائج ذلك، أن العبرانيين حينما غزوا فلسطين، صاروا على اتصال مباشر بتلك الحضارة الكنعانية المركبة، التي أُنشئ معظمها من العناصر البابلية والمصرية القديمة معًا. أما من الناحية الثقافية، فإنها كما أوضحنا كانت داخلة ضمن الإقليم التجاري الذي طالما كانت المعاملات البابلية تسيطر عليه، كما كانت في الوقت نفسه تقع مباشرة في ظل صرح المدنية المصرية العظيمة.»[٦]

ومن ثَمَّ قام «برستد» بعقد مقارنات عديدة وهامة، بين ما عثر عليه من نصوص مصرية، وبين النصوص التوراتية، كان أهم نتائجها: أن حكمة الملك المصري الأهناسي المعروفة بـ «نصائح إلى مري كارع MARE KA RA» قد وجدت طريقها إلى سفر صموئيل وسفر الأمثال،[٧] كما أثَّر تصور المصريين لمفهوم العدالة تأثيرًا لا يقبل شكًّا في سفر ملاخي وهو يقول: «إليكم يا من تخافون اسمي، تشرق شمس العدالة بالشفاء في أجنحتها» (ملاخي، ص٤)، ويعقِّب بأن العدالة في المفهوم المصري مثَّلتها الإلهة «ماعت» بنت «رع» الشمس، وأن شمس العدالة وصفتها التوراة بأن لها أجنحة، ولم يوجد في أي تصور عبري صورة لإلههم يهوه تمثله بأجنحة، ولم يوجد ذلك إلا في النقوش المصرية وحدها.[٨]

ثم يؤكد أن اليهود — لا شك — كانوا على عِلم بأنشودة إخناتون العظيمة لإله الشمس، بعد أن قارنها بسِفر المزامير، وكذلك كانوا على علمٍ بحكم الحكيم المصري «آمن موبي AMEN MU BE»، بعد أن عقد بينها وبين أسفار أرميا والمزامير والأمثال مقابلة نصيَّة كادت تكون حرفية، استغرقت حوالي خمس وثلاثين صفحة من القطع الكبير. هذا ناهيك عن العدد الكثيف والجمِّ الغفير مما قدمه «برستد» اكتفينا منه بهذه اللمحات، مع الإحالة إلى المصدر لمن ابتغى المزيد.

أما عالِم السومريات «كريمر» فقد قدم جهدًا مشابهًا في مقارنات مدهشة حقًّا ما بين التراث السومري وبين التوراة، حتى كاد يجزم أن كل آراء السومريين في الكون والدين قد انتقلت بتفاصيلها إلى التوراة، وذلك عبر البابليين الذين سبق وورثوا التراث السومري

[٦] نفسه: ص٣٧٢، ٣٧٣.

[٧] نفسه: ص٣٨٢.

[٨] نفسه: ص٣٨٥.

وشذَّبوه وقدموه إلى الدنيا، ويمكن الرجوع في ذلك تفصيلًا إلى أهم كُتبه المترجَمة، وهي: «السومريون: تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم»،[٩] الأساطير السومرية،[١٠] «من ألواح سومر».[١١]

أما نحن، فما نقصده — حقيقةً — ونُصرُّ عليه، هو أن هذه المآثر التي جمعها علماء أجلاء وقارنوها (وعدُّوها قد دخلت التوراة بالصدفة، أو بالتأثُّر الطبيعي لجماعة بلا حضارة بالحضارات الكبرى في مصر والرافدين) لم تدخل التوراة بالصدفة وحدها، ولا بالتأثُّر المنطقي الذي يصبُّ الأعلى في الأسفل، إنما ما نراه، ونحاول إيضاحه في هذه الدراسة، هو وجود العمْد والقصد من أهل التوراة، ليس مجرد الفائدة العلمية والحضارية، إنما لتحقيق أغراض ومقاصد عظمى، ستتضح في حينه.

---

[٩] صموئيل نوح كريمر: **السومريون: تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم**، ترجمة د. فيصل الوائلي، وكالة المطبوعات، الكويت.

[١٠] صموئيل نوح كريمر: **الأساطير السومرية**، ترجمة يوسف عبد القادر داود، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٧١م.

[١١] صموئيل نوح كريمر: **من ألواح سومر**، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى، بغداد، ومؤسسة الخانجي بالقاهرة، ١٩٧١م.

تأسيس ٣

إذن؛ فقد تسلل بنو عابر إلى الممالك الكنعانية تدريجًا وعلى دفعات، ويتضح ذلك في قصة التوراة عن هبوط النبي إبراهيم ضيفًا على مملكة شاليم، التي كانت قائمة قبل زمنه بزمان، وكان يحكمها كاهن ملك هو «ملكي صادق»، أو «الملك صادق»، مما يشير إلى أن ممالك كنعان كانت تعيش مرحلة المُشترك المعبدي حتى هذا الوقت.

وقد ظل هؤلاء الأغراب من العبريين يعيشون زمنًا طويلًا على هامش الحياة الكنعانية المستقرة، وتكلموا لغة أهل البلاد «الكنعانية»، وعبدوا الآلهة الكنعانية، لكن الفرصة الحقيقية للسيطرة الكاملة على الأرض، أو التحول على الأقل إلى مواطنين من الدرجة الأولى، لم تُتَح لهم طوال هذه الحقبة، وظلُّوا مجرد عصابات مأجورة لملوك كنعان، حتى جدَّ جديدٌ تَمثَّل في جَدْبٍ حلَّ بأرض كنعان، دفع بالعصابات العبرية إلى هبوط أرض مصر يستجْدون القوت، في عهد النبي «يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»، برفقة أبنائه المعروفين بالأسباط، وعلى رأسهم النبي «يوسف»، حيث نالوا هناك — فيما تزعُم التوراة — حظوظًا عظيمة، انتهت بهم وزراء لخزانة المصريين (؟!)، برغم أنه لم يوجد نصٌّ مصري واحد — فيما اكتُشِف حتى الآن — يشير إلى هذا المعنى، وقد حصلوا على هذه الرتبة بعد صداقة عقدها «يوسف» النبي مع الفرعون المصري، عندما أبهرته قدرة يوسف على تفسير الأحلام والتبصير وقراءة الطالع، إلا أنه ما إن انقضى زمن الفرعون الحلوم، حتى ضاق بهم حلم الفرعون الجديد، وقلب حظوظهم رأسًا على عقِب، فأمر باستخدامهم كعمالة رخيصة في الأعمال الشاقة، ودخل بنو عابر عهد مذلة مريرة تستشعر مرارتها في كل سِفر من أسفار التوراة، مصحوبة باللعنات المرتجاة استنزالًا على المصريين من رب العالمين. ومرة أخرى تحين الفرصة لبني عابر، فتطرأ في مصر الفتنُ الداخلية، التي تشغلها وتصرفها عن القبيلة الهامشية، وعن شئون إمبراطوريتها في الخارج، مما يخفف من هيمنتها بعض الشيء على

مستعمراتها الآسيوية، في وقتٍ انشغل فيه أهل الرافدين في صراعات انقسمت فيها البلاد على نفسها، مما يعطي الضوء الأخضر لبني عابر للهروب من مصر إلى كنعان مرة أخرى. وفي رحلة الخروج أو الهروب، وفي ضوء انشغال اليد العليا عنهم بشواغلها الخاصة في الداخل، يسجِّل اليهود في توراتهم أبشع صور الوحشية، فيأتون على كل ما يقابلهم في الطريق ذبحًا وتحريقًا، ولم يسلم من أذاهم لا الإنسان ولا الحيوان، ولا حتى نبات الأرض، بعد أن قررته لهم الشريعة الربَّانية وأباحته بإباحية مطلقة. وأسفر الرب العبراني آنذاك عن هويته بوضوحٍ، فأعلن أنه من الآن «الرَّبُّ رَجُلُ الْحَرْبِ» (خروج، ١٥: ٣)، وأن رائحة دخان المحروقات أحبُّ المشهِّيات إلى نفسه الملتاثة «وَقُودُ رَائِحَةِ سرُورٍ لِلرَّبِّ» (متكررات في سفر اللاويين، إصحاح: ١، ٩، ١٣، ١٧ ... إلخ). ولم يكتفِ بذلك، بل قرر أن يمارس لذة الذبح والإحراق، فترك عرشه السماوي وهبط يتخبط كرهًا وفظاظة ليمارس رغباته «وَأَجْعَلُ مَسْكَنِي فِي وَسَطِكُمْ، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا، وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي شَعْبًا» (لاويين، ٢٦: ١١)، وأخذ ينفث أوامره المتكررة:

- وأحْرقوا جَمِيعَ مُدُنِهِمْ **بِمَسَاكِنِهِمْ**، وَجَمِيعَ حُصُونِهِمْ بِالنَّار (عدد، ٣١: ١٠).
- اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ **الأَطْفَالِ**، وَكُلَّ امْرَأَةٍ (عدد، ٣١: ١٧).
- أحْرقُوا حَتَّى **بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ** للنَّارِ (تثنية، ١٢: ٣١).
- فَضَرْبًا تَضْرِبُ سُكَّانَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَتَحْرِقُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا **مَعَ بَهَائِمِهَا** بِحَدِّ السَّيْفِ، تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِهَا إِلَى وَسَطِ سَاحَتِهَا، وَتُحْرِقُ بِالنَّارِ الْمَدِينَةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهَا كَامِلَةً **لِلرَّبِّ إِلهِكَ** (تثنية، ١٣: ١٥، ١٦).

أما شريعة الحرب، وفق الخطة المُثلى، التي كتبها رب اليهود بإصبعه على الألواح، والتي نفذها «يشوع» خليفة موسى على القيادة، بدقة وإخلاص تحسده عليهما الضواري من كواسر الوحش، فهي مرصودة في أوامر الرب وتوجيهاته:

حين تقترب من مدينة لكي تحاربها، **فستدعوها للصلح**، فإن أجابتك إلى الصلح، وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُستعبَد لك (وما أشبه الليلة بالبارحة!)، وإن لم تسألك وعملت معك حربًا، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها تغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك، التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًّا، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا.

(أما مدن كنعان الفلسطينية، فلها في موعظة الرب الحسنة شرعة أخرى، فهو يأمر قائلًا):

وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاءِ الشُّعُوبِ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا **فَلا تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً ما** (تثنية، ٢٠: ١٠–١٦).

وهكذا وجد بنو عابر فرصتهم للتعبير عن طبائعهم وسليقتهم المفطورة بصدقٍ نادر المثال، مدهش. وقد أكد صدق هذه المفاخر التوراتية ذلك الحجر الذي اكتُشِف أخيرًا في «نوميديا» ضمن آثار «قرطاجنة» القديمة، شمال أفريقيا، وعليه كتابة تقول: «إننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من **قاطع الطريق يشوع بن نون**، بعد أن قتل منَّا في عشية واحدة عشرة آلاف إنسان.»[١]

وكان من طبائع الأمور أن تستقر أمور مصر الداخلية، وتخرج تُلملم شتات مستعمراتها الخارجية، وأن تهدأ آشور وتتماسك بابل، ليبدأ هؤلاء وأولئك يبسطون حمايتهم على المنطقة، وإن اتفقت الأغراض السياسية لكليهما على أن تظل دولة سليمان بن داود على حالها، كحائل بين الدول العظمى، لكن مع تناوب السيادة عليها حسب الفرص المتاحة. ولا يجد بنو عابر من يحرقونه ليكون رائحة سرور للرب، فيحرقون بعضهم بعضًا، وتنقسم مملكة سليمان مملكتين: السامرة في الشمال، ويهوذا في الجنوب، ويكتشف المصريون أن طبع بني عابر اللئيم غلَّاب، فيجرد الفرعون شيشنق عليهم حملة تجرِّدهم مما يستر عوراتهم، ليأتي الآشوريون، ومن بعدهم البابليون، ليستاقوهم أسرى وسبايا على شاطئ الفرات، ليعيشوا هناك في الأسر زمانًا.

وتتغير الأحوال، وتجدُّ تغيرات عالمية جديدة مع بروز القوة الفارسية الطالعة، فيتحالف المأسورون في بابل مع «قورش» عظيم الفرس، ويسرِّبون له أخبار بابل أولًا بأول، حتى يفتحوا له أبوابها، فيرد صنيعهم بأحسن منه، ويعيدهم على دفعات إلى فلسطين، ويسمح لهم بإعادة بناء الهيكل السليماني، ويقيمون دولة خاضعة للفرس، لكن الأحداث تتلاحق على صفحة المنطقة، مع قوة الإغريق الصاعدة، فيصطدم الإسكندر المقدوني بالفرس، ويحتل فلسطين لتصبح مستعمرة يونانية، ثم تقع بعد موته في قرعة قواده الرومان، لتتحول إلى مستعمرة رومانية، ويثور اليهود ثورات متكررة ضد الرومان،

---

[١] تجدها في الفصل الرابع من المجلد الثالث من Chamber's Papers.

فيأتي القائد «طيطس» ليكسب في التاريخ شرف إنهاء الوجود اليهودي هناك، ويُدمر الهيكل، ويُشتت أصحابه، ليبدأ عصر الشتات لليهودي التائه، لكن ليكون ذلك بداية بعثٍ جديدٍ، واحتلال عالمي للعقول وتهويدها، مع ظهور المسيحية وانتشارها، إضافة إلى فرصة أخرى حانت في مكان بعيد في عمق البوادي، مع ظهور الدعوة الإسلامية، وهو ما سنلمسه لمسًا رفيقًا إبان استمرارنا في بحثنا هذا.

ميثولوجيا الخلق والتكوين

... وشقَّها كما تُشق الصَّدَفة إلى قسمين وثبت
نصفًا جعله سقف سماء ...
والأسفل ثبَّته في الأرض، خلق منه الأرض.

من ملحمة الخلق البابلية (إينوما إيليش)

تقول قصة الخلق التوراتية إن الرب العبراني، بعد أن قضى على فوضى الماء أو الغمر البدائي الذي كان أول موجودات الوجود، وكان محيطًا أزليًّا مظلمًا، مثَّلته التوراة في وحشٍ خرافي عظيم أسمته «لوياثان» هو التنين ذو الرءوس المتعددة، قام الرب بشقِّه نصفين، صنع منهما السماء والأرض، وقد استغرقت هذه العملية التصنيعية ستة من الأيام، استراح بعدها الإله من عناء عمله على عرشه، في اليوم السابع. وإليكَ النصوص:

- **أَنْتَ شَقَقْتَ الْبَحْرَ** بِقُوَّتِكَ، كَسَرْتَ رُءوسَ **التَّنَانِينِ** عَلَى الْمِيَاهِ، أَنْتَ رَضَضْتَ رُءوسَ **لِوِيَاثَان** (مزمور ٧٤).
- اسْتَيْقِظِي، الْبسي قُوَّةً يَا ذِرَاعَ الرَّبِّ، أَلَسْتِ أَنْتِ الْقَاطِعَةَ رَهَبَ، الطَّاعِنَةَ التِّنِّينَ، **أَلَسْتِ أَنْتِ الْمُنَشِّفَةَ الْبَحْرَ، مِيَاهَ الْغَمْرِ الْعَظِيمِ** (أشعياء، ٥١: ٩، ١٠).
- فِي ذلِكَ الوقتِ **ستقتل لَوِيَاثَانَ، الْحَيَّةَ الْهَارِبَةَ، لَوِيَاثَانَ الْحَيَّةَ الملتوية، وَيَقْتُلُ التِّنِّينَ الَّذِي فِي الْبَحْرِ** (أشعياء، ٢٧: ١).
- وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، **وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ**، ... وَقَالَ اللهُ: لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلًا بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ،

فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ، وَدَعَا اللهُ الْجَلَدَ سَمَاءً (تكوين، ١: ٢–٨).

ثم بعد ذلك، تخيَّر الرب التوراتي مكانًا على يابسة الأرض، أسمته التوراة «جنة عدن»، وقد اتَّسم الإله بصفة الخُلد لأنه كان يتعاطى في هذه الجنة من شجرة الحياة التي تمنح الحياة الأبدية، كما اتَّسم بالمعرفة، لأنه كان يتغذى من شجرة أخرى هناك، هي شجرة المعرفة. ويومًا قرر الرب خلقَ الإنسان المدعو «آدم»، ثم خلق له من ضلعه أنيسًا هو «حواء» زوجته، ووضعهما معًا في الجنة، لكنه حرَّم عليهما ثمرة شجرة المعرفة، ففضَّل أن يكون ربَّ جاهلين لا رب عارفين. وتشرح التوراة القول:

ثُمَّ كَانَ ضَبَابٌ يَطْلَعُ مِنَ الأَرْضِ، وَيَسْقِي كُلَّ وَجْهِ الأَرْضِ، وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً، وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ، وَأَنْبَتَ الرَّبُّ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، **وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ** فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، **وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ** الْخَيْرِ وَالشَّرِّ … وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا، وَأَوْصَى الرَّبُّ آدَمَ قَائِلًا: مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلا تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ، وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ … فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا، وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً، وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ، فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي، هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِن امْرِئٍ أُخِذَتْ … وكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: أَحَقًّا قَالَ اللهُ لا تَأْكُلا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ اللهُ: لا تَأْكُلا مِنْهُ وَلا تَمَسَّاهُ لِئَلَّا تَمُوتَا، فَقَالَتِ الحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ … وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ «حَوَّاءَ» لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ» (تكوين، إصحاحات: ٢، ٣).

وهكذا، وبرغم محاولة الرب إيهام الزوجين أن ثمرة المعرفة ثمرة سامة وقاتلة، فقد فضَّل الزوجان العلم بالشيء على الجهل به، فغضب الرب لفضولهما المعرفي، وخشي أن يدفعهما الفضول إلى ما هو أكثر ترويعًا، وربما يأكلان من ثمرة الخلد فيكسبان الألوهية، مما قد يؤدي إلى منافسة غير مضمونة النتائج، ومن هنا:

وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: هُوَ ذَا الإِنْسَانُ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا، وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلى الأَبَدِ، فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمر الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا، فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاة (؟!) (تكوين، ٣: ٢٣، ٢٤).

وقد كان المظنون، حتى عهد قريب، أن الكاتب التوراتي هو الناظم الأولي لميثولوجيا الخلق بهذا الشكل، الذي اكتسب ثباتًا عجيبًا، وانتقل إلى ديانات أخرى مع بعض التهذيب هنا والتشذيب هناك، حتى بدأت الكشوف الأركيولوجية المعاصرة في آثاريات المنطقة تأتي بثمارها، وتم فك رموز الكتابة الهيروغليفية المصرية، والمسمارية والرافدية، والأوغاريتية الكنعانية، مما أثبت أن هذه الملحمة ليست إلا تهجينًا مستهجنًا لمجموعة من الملاحم القديمة، التي عرفها بنو عابر مبكرين، وأعادوا صياغتها في توراتهم، بينما اندثرت تلك الحضارات القديمة، ونُسِي تراثها، حتى أعاد الزمان سيرته، وبدأ نفض غبار الأيام الغبراء عنها.

وبرغم عدم تناسق الدراما التوراتية في التكوين، وتنافرها بعضها مع بعض، ومع أبسط البداهات العقلية، كنتيجة لسلب التراث دون إدراك لمرامي تركيباته الأصلية، ولنزعه من سياقه البيئي اجتماعيًّا وجغرافيًّا وزمانيًّا، فإن العودة إلى الأصول الأولى لمنابته، تضع بين أيدينا الأسس الحقيقية، والظروف التي بنى عليها الأقدمون تصوراتهم الكونية، كناتج طبيعي لمشاهدات الإنسان وتراكم خبرات تفاعله البيئي، ومحاولته تفسير ما يجري من جدل بين عناصر الطبيعة، ودوره ككائن متميز في هذا الجدل. ولنعد معًا إلى البداية نستطلع أحوال هذا الإنسان في ضوء ما سنطرحه من تصورات.

في مناطق الخصب، التي بدأ الأقدمون يستقرون فيها، بدأ صراع إنساني رفيع القدرات، بين الإنسان والطبيعة، من أجل أن يثبِّت أقدامه في مقرِّها، رافضًا التراجع إلى

طور البداية والبداوة، تطلعًا إلى حياة أقدر على تحدي مزاج الطبيعة المتقلب، وتحديها المستمر لهذا الكائن الذي نشأ من رحمها، ويحاول السيطرة عليها وكبح جماحها لصالح وجوده واستمراره.

وفي مناطق الخصب تنتاب الطبيعة تقلباتها المزاجية، ما بين جذب يزهق الأرواح جوعًا، ويقضي بجفافه على الزرع والضرع، وبين إفراطٍ في السخاء فتدمِّر الفيضانات جهود سنين مضنية وشاقة من عمل الإنسان الدءوب. أما الآفة الكبرى، والوحش الجبار، فكان ماء البحر الذي يداوم محاولاته في عدم ترك اليابس، واستمرار طغيانه على دلتا الأنهار، مما أدخل الإنسان المزارع في ملحمة رائعة البطولة مع هذا الوحش، ذي الأمواج المتطاولة بألسنتها من الماء المالح، تلفح زرعته وتُربته كل حين، وكان على كل منهما: الإنسان، والبحر، أن يثبت قدرته أكثر من الآخر على التمسك بالطمي الذي كانت تلقيه الأنهار في دلتاها. وكثيرًا ما أطلَّ البحر بأعاصيره رءوسًا وألسنةً تنهش من الفلاح زرعه، وتشيع في مستقراته الويل والدمار. ولعلَّ أروع هذه الملاحم بطولة ما سجله المصريون وهم يضمُّون إلى اليابس مزيدًا، يومًا وراء يوم، ويدفعون البحر إلى الوراء خلف حدوده، حتى تمكَّنت الدلتا من قوامها العظيم، وهو الأمر ذاته الذي جدَّ السومريون لتحقيقه في العراق القديم.

ومن هنا كان البحر دائمًا رمزًا للفوضى والدمار والظلام، وأنه كي يُقيم الفلاح يابسًا لزرعه وقراه، فلا بد أن يفرضه على شواطئ البحر فرضًا، أو ينتزعه من البحر بجبروته، ومن هنا نفهم لماذا تصور الإنسان بداية الكون بحرًا أزليًّا فوضويًّا معربدًا، ولماذا تصوروه وحشًا متعدد الرءوس، لا تقوم الحياة المستقرة واليابسة، بوجه خاص، دون التغلب عليه وقهره. ولذلك تصور العقل، وهو في بدئه يحاول الفهم والتفسير، أن البحر هو الأساس في الكوزموسية، ورمز للشر والظلام، بينما أصبح اليابس بطميه، الذي تأتي به الأنهار، رمزًا للخير والضياء، أما الشمس التي كانت تساعد على مزيد من التجفيف وزيادة المساحات المنزرعة، فقد أصبحت أعظم الآلهة طرًّا في جميع البلدان الزراعية، والوديان النهرية، بلا استثناء.

ومن هنا فقد تصوَّر المصريون الأقدمون، وهم بسبيل الفهم، إنشاء علاقات جدلية مع الطبيعة. إن الكون بدأ غمرًا ويمًّا هائلًا مظلمًا، أطلقوا عليه اسم «نون»، وأنَّ من «نون» خرج إله الشمس «رع» بقدرته وحده، لينشر الضياء والحرارة على الأرض، من أجل ظهور اليابس، وتكوُّن التربة الصالحة للزراعة. وعليه فإن «رع» قبل الخلق كان في الأزلية والبدء

على سطح «نون»، أو ما جاء في الرواية التوراتية يقول: «وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ»، وأن التعبير «يرفُّ» يستدعي معنى الطيران على وجه المياه. والإله الذي عرفه الشرق القديم، في المصورات طائرًا، هو «رع» المصري، الذي كان يُمثَّل دائمًا في شكل قرص الشمس مجنحًا، وهو الذي خرج من الغمر الأول «نون»، وهو الذي أنجب إله الهواء «شو» الذي فتق الأرض قسمين عظيمين، بعد أن كانتا رتقًا، ورفع القسم الأعلى سماءً أصبحت هي الإلهة «نوت»،[1] ثم تزوجت السماء والأرض، أو تفاعلت ظواهرهما فأنجبا أول البشر على الأرض، لإتمام المهمة بزيادة المساحة المنزرعة زرعًا وتفليحًا، تسجيلًا للوعي بدور ومهمة كل من الطبيعة والإنسان في تحقيق الغرض الأسمى. وفي قصة أخرى روى المصريون أن وحشًا أول، رمزوا له بالاسم «حاتمور»، أو «هاتور»، أو بالقلب اللغوي «هاروت»، وكانت إلهة أنثى، قد انطلقت تُدمر بلا تمييز، وتدخَّل «رع» الشمس لإنقاذ البشرية، وتغلَّب عليها بعد ملحمة بطولية كبرى. ولا ريب أن الشمس هنا كانت تقوم بدورها المعروف ضد ماء البحر الطاغي على اليابس، وهو ما ردَّدته التوراة بوضوحٍ، لكن بعد أن نسبت دور البطولة للرب العبري الذي قضى على البحر البدائي، ونشف البحر «أَلَسْتِ أَنْتِ الْمُنَشِّفَةَ الْبَحْرَ، مِيَاهَ الْغَمْرِ الأُولى» (أشعياء، ٥١: ١٠).

وكما أشرنا، فقد تكررت الملحمة البطولية بين الإنسان والبحر، في دلتا دجلة والفرات على رأس الخليج العربي، وسجَّلها السومريون، ومن بعدهم البابليون، ليؤكدوا أنهم عرفوا علاقة ظواهر الطبيعة بعضها ببعض، وأدركوا دور الإنسان فيها، فهذا الإله «نمو NAMU» ويُعبَّر عنه بالمقطع الصوري 〰〰 الذي يصوِّر البحر، يوصف بأنه المحيط الأول الذي أنجب السماء والأرض،[2] ثم تنجب السماء والأرض إله الهواء «إنليل»، الذي تكفَّل بمهام هامة، أولاها خلق الفأس أداة العمل الزراعي،[3] حتى إن خلْق الفأس، تلك الأداة البسيطة،

[1] د. سيد محمود القمني: **أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة**، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط ١٩٨٨م، ص٨٠.

[2] د. عبد الحميد زايد، **الشرق الخالد**، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص١٤٤.

[3] د. فوزي رشيد، **الديانة، المعتقدات الدينية**، ضمن سلسلة تاريخ العراق، (مع آخرين) دار الحرية للطباعة، بغداد، ج١، ص١٥٢، ص١٥٤.

قد أُعطي أهمية كبرى تليق بمقامه آنذاك، فأفردت له ملحمة كاملة مقدسة، تتحدث في الوقت ذاته قائلة:

الرب الذي يملك حقًّا، هو الذي أظهر للعيان
الرب الذي لا يتبدَّل في أحكامه؛ إنليل
الرب الذي **يجلب البذور إلى الأرض ليزرعها**
تولى برعايته فصلَ السماء عن الأرض
تولى برعايته فصل الأرض عن السماء.[٤]

وفي ملحمة أخرى لم يُعرف عنوانها الأصلي، واصطلح على تسميتها KAR4-METHOS وردت أبيات تقول:

عندما **فُصِلت السماء عن الأرض**
بعدما كانتا متصلتين
... وبعدما **نظمت الآلهة الجداول والقنوات**
وثبتت شواطئ دجلة والفرات
جلست الآلهة (تستريح).[٥]

وفي جنة الآلهة السومرية المعروفة باسم «دلمون DILMON»، جاء الابن الإلهي «آنكي»، ويعني اسمه «إله الأرض»، وبالتحديد «اليابس المنزرع»، ممثلًا لبداية البشرية على الأرض، لكنه أُصيب بمرض في ضلعه، بعد أن أكل من ثمار حرَّمتها عليه الآلهة «ننهور ساج NIN HURSAG»، فخلقت الآلهة إلهة أنثى تحمل اسم «نن تي NIN TI» لعلاج وتمريض «آنكي»، والضلع بالسومرية يُنطَق «تي TI»، لذلك سميت الآلهة الممرضة «نن تي»، و«نن» تعني سيدة، فهي إذن «سيدة الضلع».

ويعقِّب الآثاريُّ «كريمر» على ذلك بما يوعز لنا بحل أحجية خلق حواء من ضلع آدم التي وردت في التوراة حتى يكاد يقنعنا أن التوراة قد أخذت الأصل السومري بشكلٍ

---

[٤] كريمر ... **الأساطير السومرية**، سبق ذكره، ص٦٥، ٦٦.

[٥] د. فوزي رشيد، **خلق الإنسان في الملاحم السومرية والبابلية**، آفاق عربية، بغداد، آيار ١٩٨١م، ص١٧.

شائه، بعد مرور زمان نُسي معه هذا الأصل العتيد، ولم يبق سوى سيدة الضلع أو السيدة الضلع، فخال كُتَّاب التوراة أن الأنثى الأولى مخلوقة من ضلع الإنسان الأول، وسقط كاتب هذا الجزء من التوراة في الشرك السومري، ففسَّر حواء التي تدل على الأنثى الأولى في اللغات السامية جميعًا، بأنها مأخوذة من «تلك السيدة التي تحيي، أو تسبِّب الحياة، أو أم كل حيٍّ»، وهو ما تعنيه أيضًا الكلمة السومرية «تي»؛ لأن «تي» تدل على الضلع عندما تكون اسمًا، لكنها عندما تكون فعلًا فهي تعني «أحيا»، أو (جعله يحيا)![٦]

أما الخَتم الذي عُثِر عليه مؤخرًا في آثار سومر، ففيه فصل الخطاب، لأنه يمثِّل ذَكرًا وأنثى يجلسان متقابلين بينهما نخلة، وخلف الأنثى تدلَّت حية، رأسها بجوار رأس الأنثى، بينما تمد هذه الأنثى يدها في شكل دعوة للذكر الجالس قبالتها، ليتناول من ثمار النخلة، ولنتذكر الارتباط اللغوي بين الحية والحياة، وبين الحية وحيا الأنثى، أو فرجها كمفرز للمواليد والحياة، وبين التسمية حواء «التي تحيي»، أما ما لا يغيب على فَطِن فهو الحية المصرية المقدسة على تيجان الفراعنة تمنحهم الحياة وطول العمر.

ثم تكتشف أروع الملاحم البابلية، لتقطع ما بقي من شكٍّ بيقينها، تلك التي أصبحت من أشهر المآثر الدينية في الدوائر العلمية إلى اليوم، والمعروفة باسم «إينوما إيليش ENUMA ELISH»، أو «في العلى عندما»، وتحدثنا عن بحر أول فوضوي، ترمز له إلهة أنثى شريرة مرعبة تُدعى «تيامات TIAMAT»، يتطوع إله الدولة البابلية «مردوخ MARDOK» لمنازلتها وتخليص البشر من نوباتها الهستيرية، فيقضي عليها، ثم يشطر جسدها المائي شطرين، يصنع منهما السماء والأرض.[٧] أو كما في النص:

> شَقَّها كما تُشَقُّ الدفة قسمين،
> وثبَّت نصفًا جعله سقف سماء.[٨]
> شطر جسدها شطرين:
> أعلاها ثبَّته في السماء،

---

[٦] كريمر ... **من ألواح سومر**، سبق ذكره، ص٢٤٣، ٢٤٤.

[٧] جان بوتيرون: **الديانة عند البابليين**، ترجمة وليد الجادر، طبع جامعة بغداد، ١٩٧٠م، ص٩٧، ٩٨.

[٨] د. نجيب ميخائيل: **مصر والشرق الأدنى القديم، حضارة العراق القديم**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١م، ج٦، ص٣٠٤.

خلق منه السماء.
والأسفل ثبَّته في الأرض،
خلق منه الأرض.[9]

(ولنلحظ أن الأقدمين قد وضعوا بذلك تفسيرًا مريحًا لظاهرة سقوط الماء من الأعلى، في هيئة مطر، بحسبان السماء أحد قسمي البحر الأول!)

ثم توضح «الإينوما إيليش» أن الإله «مردوخ» كان هو صاحب فلسفة الخلق بالكلمة «وللمصداقية كان الإله فتاح المصري، صاحب فلسفة مدينة منف هو الأسبق»[10] وقد قررت الملحمة البابلية ذلك منسوبًا إلى رب المملكة البابلية، بعد أن تطور الشكل المجتمعي في الرافدين من مشتركات مدينية إلى مملكة مركزية يحكمها حاكم فرد لا تُرَدُّ كلمته، وحتى تكون كلمة الملك نافذة لا تقبل الإرجاء، فقد صيغت الملحمة تُعبِّر عن هذا المعنى الرئاسي الجديد في عالم السماء، كما هو في عالم الأرض، بحسبان الملك ممثِّلًا — جسديًّا — لمردوخ على عرش بابل.

وفي أنقاض مدينة «أوغاريت» الكنعانية القديمة، (تل شمرا حاليًّا)، تم العثور على ثروة لا تُقدَّر بثمن من المدونات الكنعانية، التي ألقت ضوءًا مباشرًا على أصل ميثولوجيا الخلق التوراتية، وكان أهم ما ورد فيها تطابق الأحداث، حتى اسم أبي البشر «آدم» بلفظه ورسمه، وهو كما ورد «أب آدم ويقرب»، أي «ويقترب أبو البشر»،[11] ومن النصوص التي وُجدَت متماسكة بعض الشيء، ذلك النص الذي تطابقه الرواية التوراتية رسمًا ونطقًا ومعنى، حول قضاء الإله على اليمِّ أو الغمر، أو البحر الأول ممثَّلًا في تنين هو بالاسم ذاته: «لوياثان»، مما يثير الدهشة لشدة التطابق، انظر النص الكنعاني يقول:

فِي ذِلكَ الْيَوْمِ،
يُعَاقِبُ الرَّبُّ بِسَيْفِهِ الْقَاسِي الْعَظِيمِ، الشَّدِيدِ لَوِيَاثَانَ،

[9] د. أنيس فريحة: **ملاحم وأساطير من الأدب السامي**، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م، ص١٠٦.
[10] د. سيد محمود القمني: **أوزيريس ... سبق ذكره**، ص٨٦.
[11] فراس السواح: **سبق ذكره**، ص٨٨.

ويضَعُ نهاية للحية الملتوية الهاربة،
شالياط ذات الرءوس السبع.[١٢]

ونص آخر يقول:

ألستِ أنتِ التي محقت يَّم؟
ألستِ أنتِ التي أفنت التنين؟
وسحق الحية
ذات الرءوس السبع؟![١٣]

أما العجيب في أمر هذه القصة كلها، التي تعود إلى مفاهيم شعوب زارعيها، تُعبِّر عن مشكلات المزارع وهمومه، ووضِعَت لتفسر ظواهر ترتبط تمامًا بعلاقة البحر بالطمي بالنهر بالخصب بالفلاح نفسه؛ العجيب أن تنتقل — بقضِّها وقضيضها — إلى التوراة، كتاب شعب رعوي بدوي لا علاقة له بكل هذا، ويحلُّ فيها الرب العبراني محل كل آلهة المنطقة الزراعية، ليقوم بكافة الأدوار، في مختلف ملاحم قصص البطولة بين المزارع والبحر، دونما مبرر منطقي واحد، سوى استيلاء الرب التوراتي على تراث المنطقة، الذي أصبح تراثًا مقدسًا، ينحشر داخل كتاب مقدس، ولا شك أن الكاتب التوراتي كان يعلم أن الجميع سيقبلها، في مصر أو كنعان أو الرافدين، لأنها إنما تردِّد تراثهم هم، ومفاهيمهم هم، وذكرياتهم هم، أيام كانت الأنهار تحفر في الرمل طريقًا لها، ولا يوجد من أرض تصلح للزراعة إلا في الدلتا حيث يفرش النهر طميه، فيهاجمه البحر، لكن التوراة ألبسته ثوبًا جديدًا، وبطولة جديدة، وشعبًا يختص بشئون الإله البطل الجديد، هو الشعب العبري.

إلى هنا والخطورة محدودة فيما حدث، لكن الإضافات التي لحقت هذا التراث، وعشَّقها الكاتب التوراتي في قصة الخلق القديمة، تشير إلى المنحى الخطير، والسم المدسوس في العسل، الذي التهمه الجميع شاكرين حامدين. أما الغلُّ اليهودي والحقد البدوي على المزارع، فينضح واضحًا ويفصح عن نفسه فيما أردف بالروايات الأصلية، ممثَّلًا في صراع بين الراعي والمزارِع، يجسد الأهداف المطلوبة داخل عقل المنطقة وروحها وقلبها المطمئن

---

[١٢] **نفسه**: ص١٨٥.

[١٣] **نفسه**: ص١٨٥، ١٨٦.

بالإيمان، فتروي التوراة ما لم يقله الأصل البابلي والكنعاني، أو تعكس الوضع الذي كان في أصل الرواية المصرية، حول أول بشر على الأرض، فبينما نجد أول البشر في مصر «أوزيريس» رمزًا للأرض المنزرعة، إلهًا للخير، وأخاه «ست» رمز البوادي والبداوة إلهًا للشر، تقول رواية التوراة:

> إن أبا البشر «آدم»، قد أنجب أخوين هما «هابيل» و«قايين»، «وَكَانَ هَابِيلُ **رَاعِيًا لِلْغَنَمِ**، وَكَانَ قَايِينُ **عَامِلًا فِي الأَرْضِ**، وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الأَرْضِ قُرْبَانًا لِلربِّ، وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا، فَنَظَرَ الربُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، وَلكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ، فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ ... وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ» (تكوين، ٤: ٢–٨).

وهكذا وضح أن الرب قد ميَّز الراعي على المزارِع، أو «العبراني» على «المصري، والكنعاني، والرافدي» منذ بداية الخليقة، دونما سبب واضح سوى أن الفلاح اجتهد، وعرق، وزرع، وحصد، وقدم ثومه، وبصله، وكرَّاثه، قربانًا مرويًّا بعرق جهده البطولي، فآذى أنف الرب الذي كان يتوق إلى رائحة اللحم المحروق كبابًا، ويلح دائمًا في طلبه، وهو ما قدَّمه له الراعي لتهدأ نفسه وتستريح. والسبب الأوضح أن قايين فلاح من أهل الخصب والزرع، ومن ثَمَّ كان لا بد من إبراز الشر الكامن فيه، مقابل طيبة الراعي السمِح الذكي، الذي لم يبذل جهدًا، إنما اكتفى بالاسترخاء إلى جوار قطعانه وهي تتلاقح، ثم أخذ من منتوجها قربانًا، فيقتل المزارِع الشرير أخاه الراعي الطيب غيرةً وحسدًا، ولا يبقى للمزارع ميزة بكل جهوده وحضارته ومنشآته وتراثه وبطولاته، إزاء التفضيل الرباني لهابيل العبراني، وما عليه إلا أن يترك الأرض وتاريخه فيها للراعي الطيب، وما شاء الله قدَّر.

ميثولوجيا الطوفان

إن **طوفانًا** سيهلك مراكز العبادة
وتهلك ذرية البشر ...
إن هذا هو القرار الذي أصدره
الآلهة في مجمعهم
قم فابنِ فلكًا.

من ملحمة جلجامش[1]

تقول التوراة:

... فَقَالَ اللهُ لنُوحٍ: نِهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي، لأَنَّ الأَرْضَ امْتَلأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ. **فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ الأَرْضِ ... اصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكًا مِنْ خَشَبٍ ... فَهَا أَنَا آتٍ بِطُوفَانِ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ**، ... كُلُّ مَا فِي الأَرْضِ يَمُوتُ، وَلكِنْ أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ، فَتَدْخُلُ الْفُلْكَ أَنْتَ وَبَنُوكَ وَامْرَأَتُكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ، ومِنْ كُلِّ حَيٍّ، **... مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ اثْنَيْنِ** ... تَكُونُ ذَكَرًا وَأُنْثَى ... وَكَانَ الطُّوفَانُ ... وَتَكَاثَرَتِ الْمِيَاهُ وَرَفَعَتِ الْفُلْكَ، فَتَغَطَّتْ جَمِيعُ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ ... فَمَاتَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ ... وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ عَلَى الأَرْضِ مِائَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا، **ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ نُوحًا!** وَأَجَازَ اللهُ رِيحًا عَلَى الأَرْضِ فَهَدَأَتِ الْمِيَاهُ، وَانْسَدَّتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ وَطَاقَاتُ السَّمَاءِ ... وَاسْتَقَرَّ الْفُلْكُ فِي الشَّهْرِ السَّابعِ ... عَلَى جِبَالِ أَرَارَاطَ ... وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَنَّ نُوحًا

---

[1] صموئيل نوح كريمر: **من ألواح ... سبق ذكره**، ص٥٢٧.

فَتَحَ طَاقَةَ الْفُلْكِ ... وَأَرْسَلَ الْغُرَابَ، فَخَرَجَ مُتَرَدِّدًا ... ثُمَّ أَرْسَلَ الْحَمَامَةَ ... فَلَمْ تَجِدِ الْحَمَامَةُ مَقَرًّا لِرِجْلِهَا ... فَلَبِثَ أَيْضًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَادَ فَأَرْسَلَ الْحَمَامَةَ مِنَ الْفُلْكِ ... فَأَتَتْ إِلَيْهِ الْحَمَامَةُ عِنْدَ الْمَسَاءِ، وَإِذَا بورَقَة زَيْتُونٍ خَضْرَاء فِي فَمِهَا، فَعَلِمَ نُوحٌ أَنَّ الْمِيَاهَ قَدْ قَلَّتْ عَنِ الأَرْضِ، فَلَبِثَ أَيْضًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ وَأَرْسَلَ الْحَمَامَةَ فَلَمْ تَعُدْ تَرْجعُ إِلَيْهِ، ... فَخَرَجَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ وَكُل الْحَيَوَانَاتِ، **وَبَنَى نُوحٌ مَذْبَحًا للربِّ، وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ الْبَهَائِمِ** الطَّاهِرَةِ، وَمِنْ كُلِّ الطُّيُورِ الطَّاهِرَةِ **وَأَصْعَدَ مُحْرَقَاتٍ عَلَى الْمَذْبَحِ، فَتَنَسَّمَ الربُّ رَائِحَةَ الرِّضَا** (كباب مرة أخرى؟!)، وَقَالَ الربُّ فِي قَلْبِهِ: لا أَعُودُ أَلْعَنُ الأَرْضَ أَيضًا مِنْ أَجْلِ الإِنْسَانِ ... وَكَلَّمَ اللهُ نُوحًا وَبَنِيهِ مَعهُ قَائِلًا: **وَهَا أَنَا مُقِيمٌ هذه علامة مِيثَاقِي مَعَكُمْ وَمَعَ نَسْلِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ ... وَضَعْتُ قَوْسِي فِي السَّحَابِ**، فتكون علامة مِيثَاقِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ كُلِّ نَفْسٍ حَيَّةٍ، فلا تَكُونُ أَيْضًا الْمِيَاهُ طُوفَانًا لِتُهْلِكَ كُلَّ ذِي جَسَدٍ ... وَعَاشَ نُوحٌ بَعْدَ الطُّوفَانِ ثَلاثَ مِائَة وَخَمْسِينَ سَنَةً، وكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ نُوحٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً» (تكوين، الإصحاحات ٦–٩).

هذا ما جاء بالكتاب العبري المقدس حول قصة الطوفان، وكان مظنونًا أنها بدورها إبداع خاص بالمؤلف التوراتي، حتى تمَّ حل رموز اللوح الحادي عشر من ملحمة «جلجامش» البابلية، مما دفع بالآثاري «كريمر»، بعد ذلك بربع قرن، تقريبًا، إلى الإعلان بثقة تامة: «أن قصة الطوفان التي دوَّنها كُتَّاب التوراة العبرانيون لم تكن أصيلة، وإنما هي من المبتكرات السومرية، التي اقتبسها البابليون، ووضعوها في صيغة الطوفان البابلي.»[٢]

وباستقراء الثلث الأسفل من لوح سومري ذي ستة حقول (نشره آرنو بوبل سنة ١٩١٤م)، نطالع أنه بعد فترة قصيرة من خلق العالم، اكتشفت الآلهة السومرية أن الإنسان لم يحقق الغاية من خلْقِه، وأنه أفسد في الأرض وسفك الدماء، لذلك قررت إفناء الحياة على الأرض وغسْلها بماء الطوفان. هذا، بينما يؤكد الباحث العراقي «فاضل عبد الواحد»: «أن الطوفان يُعتبَر من الظواهر الطبيعية المألوفة في وادي الرافدين، فمنذ قديم الأزمان حتى تاريخنا المعاصر، ما زالت مياه دجلة والفرات وروافدهما، تغمر مساحات واسعة كل عام

[٢] كريمر ... **الأساطير ... سبق ذكره**، ص٩٤٨.

تقريبًا، خاصة في الجزء الجنوبي من القطر، وأن هذه الظاهرة الطبيعية المروعة، التي لم يستطع الإنسان في وادي الرافدين السيطرة عليها بوسائله المتوفرة آنذاك، كانت في نظر الفرد — مثل غيرها من الظواهر الطبيعية الأخرى — سرًّا من أسرار الآلهة، وسلاحًا من أسلحتها، ولهذا فقد احتل الطوفان حيزًا مهمًّا في معتقدات سكان وادي الرافدين وتآليفهم، ولنا أن نفترض أن واحدًا من تلك الفيضانات العظيمة في بلاد سومر بقي صداه في ذاكرة الأجيال لشدة هوله، وبسبب ما لحق بالناس والبلاد من دمار، بحيث اتخذ منه المؤرخون القدامى نقطة لتأريخ الحوادث.»[٣]

أما ما يؤكد فرضية الباحث العراقي، بشدة، فهو أن التنقيبات الآثارية التي كشفت الطبقات السفلى للمدن السومرية القديمة، قد أظهرت تحتها طبقة من الطمي يتراوح سُمكها ما بين نصف المتر والثلاثة أمتار،[٤] مما يشير إلى حدوث الفيضان الكبير بدليلٍ آركيولوجي واضح البيان.

أما ألواح سومر فتطالعنا: أن الملك الورِع التقي «زيوسودرا ZIUSUDRA»، الذي كان يؤدي النذور بانتظامٍ لكُهَّان الآلهة، اختارته الآلهة لتخبره بقرار إفناء الحياة الأرضية بالطوفان، ونصحته ببناء فلك عظيم يجمع له من كل كائنات الأرض، من كل زوجين اثنين، وهو ما يوضح لنا أن السومريين قد تصوروا فيضانهم حدثًا كونيًّا عمَّ الأرض بأسرها، فسجَّلوه بهذا المعنى، وتمضي القصة في تصوير هول الفيضان وجبروته، إلى أن يهدأ وترسو السفينة، ويطلِق «زيوسودرا» حيواناته، فتكافئه الآلهة بالخلود الألفي في «دلمون».

وتأتي الدولة البابلية، فتتناول الملحمة وتعيد سردها، لكن البطل هذه المرة يحمل اسم «أوتنابشتيم UTNABESHTEM»، الذي ناداه الإله قائلًا:

أوتنابشتيم، يا رجل شورباك ...
اهدم الدار، وابنِ سفينة،

[٣] د. فاضل عبد الواحد، **الطوفان في المراجع المسمارية**، أوفست الإخلاص، بغداد، ١٩٧٥م، ص١١٠، ١١١ انظر أيضًا: د. سيد محمود القمني: **من الطوفان السومري إلى الطوفان النوحي**، آفاق عربية، بغداد، آيار ١٩٨٣م، ص٤٤–٦٠.

[٤] د. عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٧م، ج١، ص٤٠٠.

دع أملاكك، وأنقذ حياتك.
ارحل بها، وخذ بذرة كل حي.

ويُنفِّذ العبد الصالح أوامر ربه، ويروي قائلًا: «... وأكملتُ السفينة في اليوم السابع، وحَمَّلْتُها بكل صنوف الأحياء، واستمرت أعاصير الطوفان ستة أيام وست ليالٍ، واكتسحت الأرض كما تكتسحها عاصفة الجنوب، وفي اليوم السابع أطلقت حمامة، فذهبت وعادت، وعزَّ عليها أن تجد مكانًا ظاهرًا تحطُّ عليه، وأرسلت سنونو فذهب وعاد ولم يجد موضعًا ظاهرًا يحطُّ عليه، فأرسلت غرابًا فذهب ورأى الماء يتناقص، فأكل وعبَّ ودار ولم يعُد، وحينذاك واجهت الجهات الأربع، وضحيت، وسكبت قربانًا فوق قمة الجبل.»[٥]

وعقَّب الإله «إنليل» على الطوفان بقوله: «لقد حمل المذنب ذنبَه، والآثم إثمه، أمهِله كي لا يفنى، ولا تهمله كي لا يفسد.»[٦] وهكذا كان غرض «إنليل» هو تطهير الأرض من القتلة وسفاكي الدماء، فسَفَكَ هو دماء البشر والحيوان، ومزَّقهم شرَّ ممزق دون تمييزٍ بين صالحٍ وطالحٍ، لكن «إنليل» وباقي الآلهة، ندموا على ما ألحقوه بالإنسان من ويلٍ، وعندها قامت الإلهة «عشتار» بتعليق عِقدها الثمين الملون في باحة السماء، ليصبح قوس قزح، رمزًا لميثاقٍ مع البشر بعدم تكرار الطوفان، وعقَّبت بالقول: «كما أنني لا أنسى عِقد اللازورد الذي كان يزيِّن عنقي، فإنني لن أنسى هذه الأيام قط، سأذكرها دومًا.»[٧]

الأمر واضح، فقد سجَّل الكاتب التوراتي الملحمة الرافدية بكل دقائقها، ولكن إذا كان الرافديون قد سجلوها تَذكِيرًا بحدثٍ يتعلَّق بطبيعة بيئتهم ونسقهم الفكري، فإن الكاتب التوراتي، وهو لا علاقة له بالأمر، يتناول الملحمة ليحقق منها أغراضًا أخرى، فينسب الأمر كله للرب العبراني، ثم ينسب بطولة الملحمة للرجل الذي نسبوا إليه النسل الميمون، «نوح»، لأن من نوح سيأتي بنو عابر، ثم يضيف الكاتب التوراتي ما لم يكن في الأصل الرافدي، بما يصادق على رؤيتنا بشكلٍ وضَّاء، تلك الرؤية التي تزعم أن بني عابر قد استلبوا التراث وحشَوْه بما يلزم، ثم أعادوا تصديره إلينا مرة أخرى، ملحقًا بما يحقق الأغراض المرصودة.

---

[٥] **نفسه**: ص٤٧٥، ٤٧٦.

[٦] السواح: **سبق ذكره**، ص١٥٤.

[٧] **الموضع نفسه**، يمكن الرجوع إلى قصة الطوفان كاملة في Epic of Gilgamesh by Sanders (N. K.). Penguin books.

فهذا نوح يهبط من سفينته ومعه أولاده الثلاثة «سام، وحام، ويافث»، ومن نسلهم تأتي شعوب الأرض. وحسب التصنيف التوراتي، فإن سام سيخلف ذرية من أهل البوادي الرعاة، الذين سينسلون بني عابر — الشعب المبارك — أما حام فسينجب ولدين ينسلان شعبين، الأول هو «مصرايم» أبو المصريين، وأهل السودان وكل سود البشرة حتى الكوشيين الأحباش، والثاني هو «كنعان» أبو الكنعانيين سكان فلسطين (تكوين، ١٠)، ولعلَّ من الواضح أن الرجل، وهو يكتب، قد اتخذ لجده البعيد اسمًا من جَذر الرفعة والسمو «سام»، وحطَّ بأهل وادي النيل وفلسطين في طين الأرض وحمئها «حام»، فهو من جذر الحمو والحمأ، وربما ربط الكاتب بين الحمو واسوداد الطين واسوداد البشرة، كما أن الحمأ هو طين الأرض الحارة الخصبة.

وتصل الإضافات التوراتية إلى هدفها حين تقول:

> وابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ **فَلَّاحًا** وَغَرَسَ كَرْمًا، وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ، فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَان عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا، فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ، وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، فَقَالَ: «**مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ**»، وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ» (تكوين، ٩: ٢٠–٢٢).

وهكذا، ومرة أخرى، تحيق اللعنة بكنعان الفلاح، لعنة أبدية، مع قرار سماوي ونبوءة مقدسة، تؤكد أن كنعان سيكون عبدًا لذرية الراعي سام أبي العبريين، دونما ذنب جناه، سوى أن أباه وليس هو، أبصر عورة نوح، بل إن نوحًا نفسه لم يصب بداء الثمل من السُّكر، إلا عندما «ابتدأ يكون فلاحًا»!

والمغزى أوضح من الحاجة للشرح أو التعليق، فأرض كنعان هي المطمع والمشتهى، لأن مصر والرافدين أكبر من الطموح، ومع ذلك لم يكن هناك بأس من طرح الفكرة ابتدائيًّا، فمن يعلم؟ فيقول الرب لإبراهيم: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ» (تكوين، ١٥: ١٨).

أما النجاح الحقيقي الذي حققته مثل هذه الإضافات المصدَّرة إلينا مع تراثنا، فهو أنها وجدت طريقها إلى كتب التراث الإسلامية، مع ملحقات وزيادات أخرى، وأحيانًا مجاملات

لطيفة لبني إسرائيل، بحسبانهم محلًّا لاحتكار النبوَّات السابقة، كما أن صحيح الإسلام يضع من شروط الإيمان شرط الإيمان بالنبوَّات التي سبقت الرسالة الإسلامية، خاصةً أن الآيات القرآنية قد أعادت التاريخ كله دورة كاملة، وأكدت أن كل الأنبياء السابقين في بني إسرائيل إنما كانوا مسلمين، ومن هنا، ومع قلة التفاصيل في العموميات القرآنية، لم يجد كتبة التراث والأخبار حرجًا أو بأسًا من الرجوع إلى المنمنمات الدقيقة لتاريخ هؤلاء الأنبياء المسلمين، في كتاب اليهود المقدس، حتى أصبح منهلًا لا ينضب للمشتغلين بعلوم التراث، ولا غضاضة في الأمر مع إعلان النبي أنه هو ذاته إنما فرع من هذه الشجرة المباركة، عبر إسماعيل بن إبراهيم، أهم أرومات العبريين وأنشرهم ذكرًا. هذا مع التصريح الواضح في الحديث النبوي (عن البخاري) «بلِّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ...» وهو الحديث الذي استندت إليه طبقة كُتَّاب السِّير والتاريخ المسلمين، وعلى رأسهم ابن كثير الذي أورد الحديث في مقدمته، معلنًا أنه سيجعل من روايات أهل الكتاب مصدرًا لا غنى عنه، ويعقِّب على حديث النبي بالقول: «فهو محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا، فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذِّبها، فيجوز روايتها للاعتبار.»[٨]

وإعمالًا لذلك، قام «النيسابوري الثعلبي» يصب جام غضبه على «حام» المزارِع، فيقول «راويًا عن قتادة منسوبًا إلى النبي: فأصاب حام امرأته في السفينة، فدعا نوح ربه، قال: **فتغيرت نطفته فجاء بالسودان**»،[٩] فالأسود هنا أدنى درجة من الأبيض، سر سواده مضمر بالحديث، وربما كان ذلك سر أن العبيد يغلبهم السواد، ثم يضيف عن عطاء الحديث «ودعا نوح على حام ألَّا يعدو شعر ولده آذانهم، **وحيثما كان ولده يكونون عبيدًا لولد سام**،[١٠] ثم يزيد مجاملًا مؤكدًا لأهل التوراة فضلهم، فيقول: «ولما حضرته الوفاة (يقصد نوحًا) أوصى إلى ابنه سام، **وجعله ولي عهده**.»[١١]

أما زعيم طبقة كتَّاب السِّير ابن كثير، وهو — زيادة في النكاية — من أبناء فلسطين، ومن مواليد بلدة «شركوين»، وعاش حياته في «مجدل» وتُوفي بها، فيجعل كنعان هو الابن

---

[٨] ابن كثير: **سبق ذكره**، ج١، ص٥.

[٩] الثعلبي النيسابوري: **عرائس المجالس**، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت، ص٧٥.

[١٠] **الموضوع نفسه**.

[١١] **نفسه**: ص٦٠.

الكافر من بني نوح، والذي قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء،[١٢] ويكرر الثعلبي قائلًا: «إن حامًا واقع امرأته في السفينة، فدعا عليه نوح أن تُشوَّه خلقة نطفته، فوُلِد له ولد أسود هو كنعان ... وقيل بل رأى أباه نائمًا وقد بدت عورته، فلم يسترها وسترها أخواه، فلهذا دعا عليه أن تُغيَّر نطفته **وأن يكون أولاده عبيدًا لإخوته**.»[١٣]

أما المسعودي فأسعده أن يردد «ودعا على ولده حام، لأمرٍ كان منه مع أبيه قد اشتهر، فقال **ملعون حام**، عبد العبيد يكون لإخوته، ثم قال **مبارك سام**.»[١٤] أما نعمة الله الجزائري فينعم على سام بمزيدٍ من النياشين والتبريكات، فيقول في قصص الأنبياء: «عن أبي عبد الله أن جبريل أتى نوحًا فقال له: يا نوح إنه قد انقضت نبوَّتك واستكملت أيامك، فانظر الاسم الأكبر وميراث العلم فادفعها إلى ابنك سام ... **فدفع عليه السلام آثار النبوة إلى ابنه سام، فأمَّا حام ويافث فلم يكن عندهما علم ينتفعان به**»[١٥] وسبب ذلك مسلمات مصدقة، صَدَّق بها «الصدوق القمي» في كتابه «علل الشرائع» وهو يقول: «إن نوحًا كان يومًا في السفينة نائمًا، فهبَّت ريح فكشفت عورته، فضحك حام ويافث، فزجرهما سام ونهاهما عن الضحك، وكان كلما غطى سام شيئًا تكشفه الريح، كشفه حام ويافث، فانتبه نوح فرآهم يضحكون فقال: ما هذا؟ فأخبره سام بما كان، فرفع نوح يديه إلى السماء يدعو ويقول: **اللهم غيِّر ماء صلب حام حتى لا يولد له إلا السودان ... وجميع البيض سواهم من سام**، وقال نوح عليه السلام لحام ويافث: جعلت ذريتكما خولًا أي خَدَمًا لذرية سام إلى يوم القيامة.»[١٦]

والأمثلة على ذلك كثيرة، ولن تجد كتابًا تراثيًّا واحدًا يخلو من ذكر القصة التوراتية الملغومة، مع إضافات وشروحات اجتهادية لإنصاف سام على حام أو لإنصاف الراعي على المزارِع، أو أهل البادية على أهل الوديان الخصبة، ومن هنا نفهم لماذا أصبح كل

[١٢] ابن كثير: **سبق ذكره**، ج١، ص١٠٥.

[١٣] **نفسه**: ص١٠٨.

[١٤] المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، ج١، ص٤١.

[١٥] نعمة الله الجزائري: **النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين**، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٨م، ص٨٠، ٨١.

[١٦] الصدوق القمي: **علل الشرائع**، المكتبة الحيدرية، النجف، ط٢، ١٩٦٦م، ج١، ص٣٢.

الفراعين في نظر أحفادهم المسلمين كفارًا ملاعين، ولماذا يترحم الفلسطيني اليوم على طالوت أو «شائول» الإسرائيلي، ويلعن جده جالوت أو «جوليات» الذي استُشهد وهو يدافع عن أرضه، وما على الاثنين مسح عرق الحياء عن الجبين، من أفاعيل الأجداد الملاعين، مع بني عابر الطيبين. وإذا كان ابن كثير قد صبَّ نقمته على جده كنعان، فلا غرابة إذا وجدنا العُرف في القرية المصرية يستمد أصوله من كتب التراث الإسلامية فيجعل من ينتحلون اسم «العرب»، ويعدون أنفسهم من أصل رعوي (من جزيرة العرب) أصحاب حق مشروع في السيادة والسلب والنهب دون استهجان، بينما يصبح الانتساب للفلاحين سبة وعارًا وضعفًا ومذلة وهوانًا، مما جعل أصحاب الأصول المصرية القحة يتنافسون في استكشاف أصول بدوية عربية لأروماتهم، مما يسجل النتيجة الواضحة للجولة بين الراعي والمزارِع، أو بين أبناء حام وأبناء سام، على المستوى الديني، ثم بالتبعية على المستوى الاجتماعي والنفسي، بل السياسي، وهو أمر لا مندوحة من الاعتراف به، ولا عزاء للفلاحين.

ميثولوجيا (إيل)

في جبل إيل، جبل الله، سكناي
في الأماكن الهانئة سكناي.

(من ملحمة البعل الكنعانية)

ولنعد إلى ما قبل الوعد الإلهي بما بين النيل والفرات أرضًا خالصة (تسليم مفتاح) لبني عابر، والقبيلة تحط رحالها في أرض كنعان بهدوء الضيفان ولطف المستجير طالبًا الإجارة والجوار، وتسجل التوراة هذه اللحظات التاريخية العتيدة، فتقول:

فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ، وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ، وَكُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. **فَأَتَوْا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ،** وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. **وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ،** وَظَهَرَ الربُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: «**لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ.**» فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا **للربِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ،** ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِي **بَيْتِ** إِيل وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتُ إِيل مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَاي مِنَ الْمَشْرِقِ (تكوين، ١٢: ٥–٨).

القبيلة العبرية هنا مختصرة، مرموز لها بقيادتها من الأسرة الإبراهيمية، تخرج من حاران تريد أرض كنعان، بإيجازٍ سريعٍ يشير إلى خط الهجرة الآرامية، وضمنها القبيلة العبرية والفخذ الإبراهيمي. ثم، وبالسرعة ذاتها، وفي إشارة خاطفة تقول التوراة: إن الكنعانيين كانوا أهل هذه الأرض وأصحابها، لكن حلقها يغص بذلك فتلتوي في تعبيرها، ولا تفصح بالتعبير المباشر، إنما تقول: «وكان الكنعانيون حينئذٍ في الأرض»!

ودون مقدمات ولا ممهدات، يظهر الرب لأبرام ليهَبه الأرض الكنعانية، مسجَّلة ومشهرة وممهورة بالضمانات لولده من بعده، فهو ليس مجرد انتفاع مؤقت إبان حياته تئول بعده لأصحابها، إنما لنسله، ولنلحظ أنه لم يقل حتى لأبنائه، إنما **لنسله**! فالخطط معدة سلفًا، ولأمدٍ بعيدٍ مقبل.

أما العجيب في الرواية هنا فهو التعبير «فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا للربِّ الذِي ظَهَرَ لَهُ»! وهذا إنما يعني وجود أرباب لم تظهر له، وظهر أحدها، أو أن القبيلة كانت قبل نزول كنعان تعرف ربًّا محددًا غير هذا «الذِي ظَهَرَ لَهُ»، ويظهر هذا الجديد فجأة في كنعان بالذات، وهو قول يتسق مع واقع الأحوال آنذاك، فقد كان لكل شعب أرض، ورب للشعب والأرض، فهل كان هذا «الَّذِي ظَهَرَ لَهُ» ربًّا لأبرام منذ البدء، أم أنه رب كنعاني حيث حطَّت القبيلة رحالها؟ الإجابة يمكن استنتاجها من باقي الرواية التوراتية، وهي تقرر بوضوحٍ أن «إِيلَ إِلهَ إِسْرَائِيلَ» (تكوين، ٣٣: ٢٠). وهنا يجدر بنا الوقوف قليلًا لتسجيل بعض الملحوظات الهامة التي يمكنها أن تجيب على السؤال المطروح.

(١) أن الإله طوال القصص التوراتي السابق على نزول أرض كنعان، منذ بدء الخليقة إلى ظهور أبرام، لم يُذكَر أبدًا بالاسم إيل، مما يشير إلى أنه لم يكن معروفًا لهذه القبيلة في مواطنها الأصلية.

(٢) كان هذا الإله معروفًا هناك حين وصول القبيلة أرض كنعان، وله بيت مقدس يُعبَد فيه. وأصبحت المدينة المقام فيها حرمًا كاملًا له، وسميت «بيت إيل». «ثم نقل من هناك إلى الجبل، شرقي بيت إيل، ونصب خيمته، وله بيت إيل في المغرب وعاي من المشرق»، أي أنه سكن بين المدينة المقدسة «بيت إيل» ومدينة «عاي».

(٣) أن هذا الإله الكنعاني قد أصبح إلهًا لإسرائيل، أو أنهم اختاروه إلهًا، وأعلنوا أنه هو الذي اختارهم، والغرض الذي يمكن فهمه أن لكل شعب أرضًا يرتبط بها بالمواطنة والوطنية، ولا توجد شعوب دون وطن، لكن توجد «قبائل» بلا وطن، تمتهن الرعي، وترتبط ببدئية البداوة، وتنفر من عاطفة الوطنية والاستقرار، لذلك عندما قرر هؤلاء أن يتحولوا من قبيلة إلى شعب، وحلا لهم اسم «شعب الله المختار»، قاموا يمنحون أنفسهم أرضًا، منحها لهم رب الأرض ذاتها، فهو الذي اختارهم وأتى بهم إلى بلاده ليتألَّه عليهم، بعد أن ضاقت به السبل وانقطعت الوظائف، فاختارهم شعبًا خاصًّا له يمارس معهم الربوبية! وحتى لا يكون هناك تناقض، فإن الرب نفسه، بحسبانه المالك الشرعي، هو الذي منحهم أرضه الكنعانية، لذلك ما فتئت التوراة تكرر هذا المنح من الرب الكنعاني صاحب أرض

كنعان بكافة الصيغ، التي أبرزها «**وأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ، مُلْكًا أَبَدِيًّا، وَأَكُونُ لهم إِلهًا**» (تكوين، ١٧: ٨).

(٤) وإضافة إلى كون «إيل» إلهًا كنعانيًّا قديمًا في البلاد، له بيته ومدينته المقدسة، فقد كان له كهانته المنظمة، قبل هبوط القبيلة العبرية عليه. فهذا كبير الكهنة يستضيف أبرام وأهله بعد معركة ناجحة مع أعداء للمنطقة الكنعانية، ثم يبارك أبرام باسم إيل، فيسبغ عليه المواطنة لدفاعه عن البلاد «وَمَلْكِي صَادِقُ، مَلِكُ شَالِيمَ، أَخْرَجَ خُبْزًا وَخَمْرًا. **وَكَانَ كَاهِنًا للهِ الْعَلِيِّ، وَبَارَكَهُ** وَقَالَ: «**مُبَارَكٌ أَبْرَامُ مِنَ اللهِ الْعَلِيِّ** ... الَّذِي أَسْلَمَ أَعْدَاءَكَ فِي يَدِكَ» (تكوين، ١٤: ١٨–٢٠). وفي المقابل تقرر أن ينال الكاهن من أبرام ورجاله الذين أخذوا يصولون في المنطقة ويجولون، العُشر من الغنائم التي يغنمها «فَأَعْطَاهُ عُشْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» (تكوين، ١٤: ٢٠)، وتمَّت الصفقة بمباركة من ملك في الجوار كان له نصيبه أيضًا، فحضر الاتفاقية «وَقَالَ مَلِكُ سَدُوم لأَبْرَامَ: «**أَعْطِنِي النُّفُوسَ**، وَأَمَّا الأَمْلاكُ فَخُذْهَا لِنَفْسِكَ ...» (تكوين، ١٤: ٢١)، لكن أبرام يترك لهم كل شيء من الغنائم الزائلة بإباء وشَمم، ويقول للملك: «لا آخُذَنَّ لا خَيْطًا وَلا شِرَاكَ نَعْل وَلا مِنْ كُلِّ مَا هُوَ لَكَ، **فَلا تَقُولُ: أَنَا أَغْنَيْتُ أَبْرَامَ**» (تكوين، ١٤: ٢٣-٢٤). ويتوجه للرب «إل عليون»، أو «إيل العالي» أو «الله العلي» بندائه: «أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، مَاذَا تُعْطِينِي» (تكوين، ١٥: ٢)، فيجيبه «أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ **لِيُعْطِيَكَ هذِهِ الأَرْضَ لِتَرِثَهَا**»، ثم لا يلبث «إل» أن يوسع على خليله، فيزيد «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ.»

(٥) إن «إيل»، إله المدينة الكنعانية المقدسة «بيت إيل»، يستمر على عهده وتصميمه في اختيار بني عابر شعبًا بديلًا لشعبه الكنعاني، فيظهر ليعقوب حفيد أبرام ليؤكد له استمرار الحلف، ويُعرِّفه بنفسه قائلًا: «أَنَا إِلهُ بَيْتِ إِيلَ» (تكوين، ٣١: ١٣).

وحتى تثبِت التوراة جدارة بني عابر بالأرض، ورب الأرض، تجعل الإله الكنعاني يمر بتجربة مريرة، يستشعر بعدها مدى حاجته الشديدة للعصابة العبرية، فتروي:

... **بقي يعقوب وحده، وصارعه** إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه ...

وبرغم أن «حق فخذ يعقوب» قد انخلع في هذه الجولة الصراعية، فإنه يستمر ويضغط على خصمه مما يضطره إلى ترجِّيه «وَقَالَ: **أَطْلِقْنِي**، لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ»، وهنا، وفي هذه اللحظة التاريخية، يكشف يعقوب شخصية خصمه الحقيقية، التي تخشى النور والنهار،

ويعرف فيه «إل» إله كنعان، فيرفض يعقوب إطلاقه إن لم يباركه، بما تحمل هذه البركات من أعطيات:

وَقَالَ: «أَطْلِقْنِي، لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ، فَقَالَ: لا أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي، فَقَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ؟ فَقَالَ: يَعْقُوبُ، فَقَالَ: لا يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، **لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ**، وَسَأَلَ يَعْقُوبُ وَقَالَ: أَخْبِرْنِي عن اسْمِكَ، فَقَالَ: لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟ وَبَارَكَهُ هُنَاكَ، فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ «فَنِيئِيلَ» قَائِلًا: **لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي**» (تكوين، ٣٢: ٢٤–٣٠).

ومن هنا تغيَّر اسم يعقوب إلى «إسرائيل»، ليصبح أولاده من بعده يحملون اسم «بني إسرائيل»، والكلمة «إسرائيل» هي في الأصل العبري «صرع-إيل»، وتعني «مصارع الرب»، أو «صارع الرب»، وهكذا أثبت يعقوب لرب كنعان قدراته، ومن ثم استحقاق هذا الرب للحماية، وفرض الإتاوة، وسلب الأرض، ونهب العرض، ولا بأس أن تتدخل الشروحات المتفذلكة لتؤكد أن الكلمة «إسرائيل» تعني أيضًا: (جندي الرب)، أي حامي الرب والمدافع عن حياضه وذماره!

أما المكتشفات الآثارية في تل شمر (مدينة أوغاريت الكنعانية القديمة)، فقد كشفت لنا في ملامحها المتعددة عن عبادة الإله «إيل» كسيدٍ للآلهة، وخالق للبشر، وأنه كان معروفًا على نطاق واسع في هذه المنطقة، وتصفه ملحمة البعل بأنه خالق الكائنات، رفيع المقام، مقامه عند نبع النهرين قرب أفقا، أبي الزمن والسنين، لطفان «أي كثير اللطف» ... إلخ.[١]

لكن، كما سبق وأشرنا، جدَّت ظروف أدت إلى مستجدات في جوهر الاعتقاد اليهودي، فحلَّ الجدب بأرض كنعان، مما اضطر القبيلة العبرية أن تهبط مصر، مع واحد من بني إسرائيل هو «يوسف»، حيث عاشوا أو عاثوا هناك زمنًا، خرجوا بعده بقيادة سليل إسرائيل العتيد «موسى» النبي، وتحت راية إله جديد، غلبت عليه العناصر الرعوية هو «يهوه» أو «جاهوفاه»، وإن ظلَّت فيه علامات زراعية خصيبة لم يستطع التخلص منها بحكم تأثير الوسط البيئي في اليهود. وقد أصبح «يهوه» هو إله اليهود القومي طوال تاريخهم بعد ذلك، ويبدو أنه جاء كرد فعلٍ للاضطهاد المصري، وقد وَضَحَت بدويته في

[١] يمكنك الرجوع إلى ترجمة كاملة لملحمة البعل في **(ملاحم وأساطير في الأدب السامي)**، د. أنيس فريحة، دار النهار للنشر، بيروت، ط٢، من ص١١٣–١٦١.

مجموعة سمات (لا مجال لسردها هنا)، وكان أبرزها ما أوردناه من شرائع الحرب. وقد أدى ظهور «يهوه» إلى انتهاء «إل» تمامًا، وتحوُّله إلى رمز وعلم قديم أُدمَج في «يهوه» نهائيًّا، إضافة إلى أن بني عابر لم يعودوا في هذا الطور بحاجة لمالأة آلهة المنطقة، بعدما تيسَّر لهم جهاز الردع وتحولوا بكاملهم إلى مؤسسة عسكرية متحركة إلى كنعان، فجاء «يهوه» متَّسقًا مع طبيعة المرحلة والعنصر، مع ملاحظة أن التوراة تقول: إن موسى قد التقى بهذا الإله خارج مصر، وفي منطقة من البوادي أسمتها «مديان».

ميثولوجيا المسيح الملك

إنهم يقولون عنك يا أوزيريس:
ولو أنك ترحل إلا أنك تستيقظ ثانية.
ولو أنك تموت، إلا أنك تُبعث مرة أخرى،
قف، انهض، إن إيزيس تحبك!

(متون الأهرام)

وكل ما أسلفناه من نصوص توراتية، يضمُّه كتاب مقدس واحد مع الأناجيل المسيحية، يؤمن به المسيحيون كمقدس واحد على ذات الدرجة من القدسية، تأسيسًا على قول المسيح: «لا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ» (متَّى، ٥: ١٧)، مقررًا بذلك أنه جاء مصدقًا للتوراة وسيرة الأنبياء اليهود فيها، وأنه إنما متمم فقط، وهو أمر كان له دوره الخطير في دخول الإسرائيليات كعمد أساسية للإيمان المسيحي، حتى إن المسيح نفسه لم يتعرض، لا بالشرح ولا التعليق، حول قصص الخلق، أو الطوفان، أو غيرها من قصص التوراة، بحسبانها مقررات صادقة مُسلَّمًا بها، وطلب من المؤمنين الرجوع إليها في التوراة، لذلك ظلَّت الأناجيل جميعًا قصة حياة وموت وقيام المسيح، ومعنى الخطيئة والفداء وما ارتبط بها من عقائد وطقوس، وقد كانت بدورها تراثًا من **الثقافة القديمة للمنطقة**، ظل حيًّا وقائمًا إلى زمن المسيح، حتى وقع في يد اليهود فاقتنصوه، وانهالوا عليه تهويدًا، حتى صار تراثًا لبيت داود (ولا نعلم لماذا يبحث المسيحيون في التراث اليهودي، أو المهوَّد، عن النبوءات بقدوم المسيح، ويربطون التوراة بالإنجيل لما فيها من هذه النبوءات، بينما كان عليهم أن يبحثوا عن ذلك في المصادر الأصيلة في تراث المنطقة،

والتي انتهت وصبَّت جميعًا عند المسيح؟ أو لماذا التقليد ولدينا الأصل؟ أو لماذا المهوَّد ولدينا الوطني الأصيل؟ بينما الأمور كلها تسير وفق نظام تطوري جميل المنطق، صادق المقدمات والنتائج بذاته يتسق مع ظروف المنطقة وبيئتها، وجدل الإنسان مع الطبيعة فيها، بعيدًا عن بني عابر وأساليبهم في العبور إلى العقول؟).

ويبدو أن واقع الأمر قد سبَّب إرباكًا شديدًا للمهتمين بالبحث الجاد، بين المسيحيين الشرقيين، لارتباطهم من جانبٍ بوطنهم وما يلزم عن هذا الارتباط من معانٍ تستلزمها الوطنية، وارتباطهم من جانبٍ آخر بمقدس مفروض عليهم فرضًا في العهد القديم، ويناقض تمامًا هذه الوطنية ومصالح الوطن ومعنى المواطنة الحقة. فهذا المرحوم الصديق أنيس فاخوري ينشغل بالقضية زمنًا إلى أن يهديني ما وصل إليه منشورًا في كتاب، حاول فيه نزْع ما لحق بالعقل المسيحي من تهويد، بعد أن وضع يده على نقطة التقينا عندها، وهي بنص كلامه: «عندما نستغرب، نحن في الشرق الأوسط أو في العالم العربي، كيف أن الغرب المسيحي لا يأبه لحقِّنا، بل يدعم حق عدونا المغتصِب، وعندما نبحث عن أسباب ذلك الدعم وننسبه فقط إلى قوة اليهود المالية والاقتصادية والإعلامية المُسيطرة في العالم الغربي، نكون قد وضعنا أيدينا على نصف الجواب الصحيح، أما النصف الآخر الذي ما زلنا نجهله أو نتجاهله، فهو كامن في **أن الذهن الغربي المسيحي قد تهوَّد** منذ أكثر من ثمانين سنة، **وتبنَّى مطالب الصهيونية وكأنها أمل كل مسيحي**.»[١]

وهكذا عبَّر الرجل عن معايشته أرقًا ظل مهمومًا به إلى يوم وفاته، ما بين إيمانه وبين وطنيته الصادقة، وما يتعرض له هذا الوطن، في ضوء ما رسمته المقدسات في العقل بما يناقض تمامًا مصالح هذا الوطن، لكن الأستاذ فاخوري كان مؤمنًا ويرفض التخلي عن هذا الإيمان، لذلك حاول باستمرار أن يرجع هذا التهويد إلى العصر الراهن مع ظهور الدعوة الصهيونية، برغم إشارات في كتابه تتحدث عن أسباب تبني الغرب المسيحي لمطالب الصهاينة، وما أسماه دون تصريح، بـ «**… الوشائج الدينية الغامضة القائمة بين المسيحية واليهودية**، والعلاقة غير الواضحة تمامًا، ما بين العهد القديم والعهد الجديد في الكتاب المقدس للكنيسة المسيحية، وهي الأمور التي جعل منها التضليل اليهودي ركائز

[١] أنيس فاخوري: **نسف الأضاليل مرحلة أساسية في إزالة إسرائيل**، أوفست مؤسسة فاخوري، بيروت، ١٩٧٤م، ص٢٩.

دينية وأدبية قوية، متأصلة في ذهن الغرب المسيحي، لذلك نرى أن **الكيان الإسرائيلي الديني السياسي كان قائمًا في ذهن الغرب المسيحي**، لمدة طويلة، سبقت إعلان الأمم المتحدة قرارها بالتقسيم سنة ١٩٤٧م، تمهيدًا لقيام إسرائيل في السنة التالية.»[٢] وما أشار إليه من أسباب ساعدت على هذا التهويد «... بواسطة **اليهود المتنصِّرين** الذين اندسوا بين المسيحيين عبر السنين، وأخذوا يغذونهم بالتفاسير والنظرات والتعاليم المُضللة ... الذي **سهَّل اختلاط الأمر على المسيحيين**»،[٣] لكن دون أن يشير بالطبع إلى أن كل تلاميذ المسيح بلا استثناء إنما كانوا يهودًا، وهم حواريُّوه، وكتبة أناجيله، ورسله إلى العالمين! واكتفى بالتنبيه إلى ما أسماه الوشائج الدينية الغامضة (بغموض) بين الكتابيْن والديانتين، وهو الأمر الذي نراه غير غامض، ولم يعد يحتمل مجاملات أو محاذير، بل هو الأمر الذي كتب للمبادئ اليهودية النصر الحقيقي على نصف عقل العالم اليوم.

ودونما علاقة خاصة بقضيتنا وروافدها السياسية والتاريخية، ودونما رابطة مواطنة أو وطنية، يكتشف بعض المسيحيين في الغرب تناقض العهدين القديم والجديد، ويؤسِّسون مذهب الثيوزوفيرية والأزوتيرية السرية الجديد، يحاولون فيه تخليص المسيح الروحاني والمسيحية العالمية من المفاهيم الناموسية المؤسَّسة على عمد توراتية، مما يصل بهم إلى رفض العهد القديم، بأنبيائه ومفاهيمه وشرائعه، ويلجئون إلى تفسير الأناجيل وما لحقها من مفاهيم ناموسية يهودية تفسيرًا جديدًا لا علاقة له بالقديم، يقوم على التأويل والترميز، إبقاءً لإيمان روحي بالمسيح، ورفضًا لإيمان ناموسي بالشرع واللامعقول، وهو ما نجده في مؤلفات واحد من المبشِّرين بهذا المذهب من العرب (ندرة اليازيج)، الذي وضح أنه وجد خلاصه الروحي، وحِسَّه الوطني معًا في هذا المذهب، فيُصرح دون مواربة ولا وجل بالقول: «يُخطئ المسيحيون إذ يبقون على الصلة بين المسيحية واليهودية، فقد استغل اليهود نقطة الضعف هذه **منذ بداية عصر التبشير المسيحي**، أنهم تغلغلوا بين المسيحيين، وأرادوا أن يجمعوا بين ما لا يُجمَع إطلاقًا، وقد حذَّر بولس وغيره من المؤمنين وأنذرهم كي لا يستمعوا إلى أكاذيبهم، وظلَّت المسيحية قرونًا عديدة تخضع لهذه الأقاويل، وتقترن **باليهودية المسيحية**، هذه البدعة التي **تقوض المسيحية وتعيد لليهودية كيانها**، وإذا

---

[٢] **نفسه:** ص٧.

[٣] **نفسه:** ص٢٣.

لم تعمل المسيحية على تخليص ذاتها من اليهودية، فإن كلام بولس وتحذيراته تظل صحيحة إلى الأبد.»[٤]

وهكذا فإن يازجي، ممثِّلًا للثيوزوفيرية، يطلب شطب التوراة من تاريخ المسيحية ومقدساتها، وقد عمد إلى ذلك بطول كتابين بين أيدينا،[٥] عامًدا إبان ذلك إلى إبراز الفروق الجوهرية بين إله موسى التوراتي المرعب الدراكولي، وبين إله المحبة والسلام مسيح الأناجيل. لكن يازجي يؤكد، بذلك، على جانب واحد من صورة مسيح الأناجيل، وهو الجانب المتأثر بثقافة المنطقة، وتتضح صبغته الزراعية واضحة في المسيح الروحاني السماوي، وصاحب الملكوت الأخروي، مهمِلًا في الصورة ذاتها المسيح الممسوح بالصبغة البدوية والفكر اليهودي، والتي صبغته بصورة ابن داود صاحب الملكوت الأرضي لإسرائيل، وما كان ممكنًا له كمؤمن المطالبة برفض آخر لجزء من الأناجيل، نظرًا للتعشق التام بين الصبغتين من المقدس المسيحي الإنجيلي، مما اضطره إلى اللجوء إلى التفسيرات الرمزية والتأويلية للجانب المطبوع بوجهة النظر الإسرائيلية من المسيح كملك لليهود من نسل داود، فجاء مبتسرًا ومتكلفًا وغير مقنع، لا للمؤمن المسيحي ولا للباحث المحايد الموضوعي، ولا لغير المؤمنين بالمسيحية، بينما الأمر الواضح لدينا هو ما أوضحناه، أن المسيح الإنجيلي قد جمع ثقافتين متنافرتين تمامًا وجذريًّا، تم دمجهما في عصر الدمج الإمبراطوري إبان السيطرة الرومانية وفي العصر الهلليني بالتحديد؛ ثقافة الراعي وثقافة المزارِع، أو والراسب اليهودي، والتراث الوطني للمنطقة، ذلك التراث الذي تمثَّل إبان ظهور المسيح وقبله، في مجموعة ديانات الفداء الزراعية، التي تدين جميعًا في كثير من تفاصيلها إلى أهم العقائد المصرية القديمة، هي عقيدة الثالوث الأوزيري (أوزيريس الأب OSIRIS، إيزيس الأم ISIS، حوريس الابن HORUS)، والتي سبق وأفردنا لها كتابًا خاصًّا صدر عن دار الفكر مؤخرًا بعنوان: «أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة». وهي عقيدة تحتاج منا وقفة حية متعجلة، بما يتفق والمساحة المتاحة في هذا العدد. وإضافة إلى هذا العرض السريع يمكن

---

[٤] ندرة اليازجي: **رد على اليهودية واليهودية المسيحية**، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط٢، ١٩٨٤م، ص٣٩، ٤٠.

[٥] ندرة اليازجي: (إضافة للكتاب المذكور في ٥١) كتابه: **رد على التوراة**، دار طلاس، دمشق، ط٢، ١٩٨٤م.

الاستعانة بالكتاب المشار إليه، مع أربعة بحوث سبق وفصَّلنا فيها القول عن ديانات الخصب الفدائية، ورصدنا بياناتها في الهامش.[٦]

وبالعودة إلى العصر الهلليني الروماني، نجد أنه قد انتشر على صفحة الخصب، شرقي المتوسط، مجموعة من العقائد المتشابهة، تأسست على نتاج الخبرات القديمة للمزارع مع الطبيعة، وكوَّنت مجموعة من المفاهيم عن آلهة للخير وأخرى للشر، وعبدت عادةً ثالوثًا إلهيًّا مَثَّل فيه دور الأب، الإله المختص بالخصب ريًّا ومياهًا طامية، وتصوروه إذا كان نهرًا في البلاد التي تعتمد في ريها على الأنهار، أو في السماء الممطرة في البلاد التي تعتمد على الأمطار، كإله ذَكر يخصب الأرض دومًا بلقاحه المائي، لذلك تصوروا الأرض إلهة أنثى، تعطي مولودها زرعًا، هو بدوره «الزرع» إلهًا يقوم بتمثيله الإله الابن في الثالوث المقدس للعائلة الإلهية، وغالبًا ما اندمج الأب في الابن بحيث أصبحا أُقنومًا واحدًا، يمثِّله إله واحد، هو إله الماء، وفي الوقت ذاته إله النبات.

وكما يموت الزرع ويجف ثم يعود إلى الحياة، فقد تصوروا إله الخصب تجري أموره على الوتيرة ذاتها، فهو قد مات ثم قام في صيرورة خالدة أبدًا، فموته مؤقت وخلوده هو الحقيقة المطلقة، وهي تصورات تتسق وتفكير الإنسان آنذاك، وتعبِّر بصورة شعرية دينية عن علاقة الإنسان بالزرع الذي تتوقف عليه حياته واستقراره المجتمعي، لذلك كان لا بد من العمل الجاد في الأرض لمساعدة هذا الإله المحب العطوف على العودة إلى الحياة مرة أخرى، فأضفت على العمل في الأرض صبغة القداسة، وربطت المواطنة والعمل بالإيمان، بحيث يُعَدُّ أي إهمال في حق الأرض ورب الزرع كُفرًا مبينًا (ولم يزل العُرف في مصر يعتبر تفريط المزارِع في الأرض الزراعية بالذات، دون غيرها، سبَّة وعارًا لا يمحوانه أية محاولات تكفير بديلة)، وهكذا كانت العقيدة القديمة ضامنة للمجتمع سلامته واستمراره مترابطًا،

[٦] د. سيد محمود القمني: **إلهة الجنس أو الزهرة**، آفاق عربية، بغداد، عدد ٩، ١٩٨٢م، من ص٣٨–٤٧.

د. سيد محمود القمني: **البعد الأسطوري للشيطان في التراث الشرقي**، فكر للدراسات والأبحاث، القاهرة، عدد ١٠، من ص١١٩–١٢٥.

د. سيد محمود القمني: **الأضاحي والقرابين: الجذور الاجتماعية**، فكر للدراسات والأبحاث، القاهرة، عدد ١١، يناير ١٩٨٨م، من ص٨٣–١٠٦.

د. سيد محمود القمني: **القمر الأب، أو الضلع الأكبر من الثالوث**، الكرمل، نيقوسيا، قبرص، عدد ٢٦، ١٩٨٧م، من ص٣٩–٦٥.

كناتج لارتباط المستقر بالأرض، ما دامت تعطي، وهي لا تعطي إلا بالعمل، وبالإيمان بها وبهذا العمل.

وقد دخلت عقائد الفداء مختلفة المواطِن الخصيبة، بتطورات وتغيرات حذفت منها وأضافت، كناتج طبيعي للجدل الاجتماعي وما يفرزه من تغيرات على مستوى النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وراعٍ طبقي حاضر دومًا في هذا الجدل، حتى بلغت كمال نضجها في انضوائها تحت راية الإله المصري «أوزير» رب الثالوث المصري، ورمز النيل والغلَّة في آن واحد، بل اندمجت فيه تمامًا، وذلك في العصر الهلليني الروماني، الذي اصطلح المؤرخون على تسميته بما أسماه لسان حال الجماهير آنذاك: عصر الآلام، كناتج لسيطرة السلطان العسكري الروماني. وواضح لدينا أن هذا الانضواء قد بدأ تفاعلًا ثوريًّا اندمجت فيه مختلف ديانات الفداء في منظومة واحدة، تحت راية أوزير المصري، كقيادة لشكلٍ أيديولوجي موحد في مواجهة القمع الروماني، بعد أن أُتيحت لهذا الإله مجموعة من العوامل جعلت منه قيادة روحية وأيديولوجيا ثورية، كما أدت إلى انتشار عالمي لعقيدته مع زوجته إيزي وابنه حور، حتى فرض وجوده على إيمان الرومان أنفسهم فعبدوه مع أسرته باسم «سيرابيس SIRAPIS»، وبينما كانت جامعة الإسكندرية مركز الإشعاع الفكري والعقدي آنها، تواصل تصديره مع كل طالب علم، مصحوبًا بكثير من الإضافات التفسيرية والفلسفية.

وقد انتهينا في كتابنا المذكور إلى أن عبادة أوزير في مصر القديمة قد ترافقت مع ثورة عظمى ضد النبلاء والملكية والدين الرسمي القائم، وذلك قرب نهاية الدولة القديمة، وكانت هذه الديانة بمثابة الأيديولوجيا التي حددت للثورة طريقها وأهدافها، بعد أن جمعنا لذلك عددًا من القرائن والبراهين، انتهت إلى حسبانه الإله الذي رمز لانتصار العدل على الظلم، وأن موته في أسطورته، على يد الظالمين، وما عاناه من آلام أثناء ذلك تعبيرًا — ومشاركة — عن آلام الجماهير، ثم موته، ثم قيامته من الموت، إعلام عن عودة الوعي، أو عودة الجماهير إلى الصحو، كما كان ابنه الإلهي «حور» وهو يقود الجيوش ضد الملك الشرير الظالم «ست»، لهيبًا يؤجج صدور الجماهير ويشعلها حماسة، ومن هنا كان الإيمان بأوزير يعني ضرورة القيامة والثورة والتجدد الدائم، كالزرع المتجدد دومًا، الذي يكافح تحت التربة بعد الموت الظاهري، للعود إلى الحياة مرة أخرى. فأوزير قد تعذَّب ومات شهيدًا من أجل المتألمين، ومشاركة لهم في الآلام. وقد ساعد على انتشار هذه العقيدة في بقاع الإمبراطورية الرومانية دور الإلهة «إيزي»، التي مثَّلت الوفاء بأجلى معانيه لزوجها الثائر، ورفضت أي

استسلام للقدر الذي قرره رب الدولة «رع» على زوجها بالموت، وقامت تجمع أشلاءه بعد مقتله، من أجل القيامة المجيدة، ومثَّلت دور الأنثى الثائرة، التي تقوم بدورها من أجل إقامة العدل، ودور الزوجة المخلصة الوفية، لكنها الحرة، والتي يحرِّر حبُّها من يؤمن بها ويحبها، ومن هنا وجدت لها من الإناث عابدات مخلصات في كل صقع، في ضوء مقررات الاستعباد الروماني للمرأة، التي أصبحت في عصر الآلام مجرد متاع رخيص مبتذل، مع وعد بعالم آخر بلا ألم ولا ظلم قرب عُش أوزير، لأن أوزير لم يستشهد إلا عن قصدٍ منه ورغبة، لكي يثبت أن من يموت يقوم، ومن يعاني الآلام لا بد أن يُعوَّض عنها عالمًا سعيدًا خالدًا، ومن هنا قرر أن يكسر حاجز الخوف عن الجماهير، فهبط من مجده السماوي، ومات، وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، بعد أن التقى بروحه بحبيبته إيزي وهي بعد عذراء، بلا ملامسة جسدية، فأنجبت منه «حور»، وعليه كان الإيمان بأوزير هو بمثابة بنوة له، لأنه التقاء أرواح، ويصبح المؤمنون به أبناء له، يدخل الإيمان إلى قلوبهم مصحوبًا بصفته الإلهية، فيخلدون مثله في عالمه الآخر، لذلك كان الإيمان بأوزير وبموته وقيامته، سبيلًا إلى قيامة أخرى للمؤمنين في عالمه السعيد، ومن يموت شهيدًا فسوف يقوم. ولا عجب إذا وجدنا هذا الإله يفعل فعله الأيديولوجي في عقر الدولة الرومانية، فتتخذ ثورة العمال في عصر الآلام من الديانة المصرية أيديولوجيا دافعة للثورة.[٧] برغم كل محاولات الحكام المتتالية لتفريغ هذه الأيديولوجيا من مضمونها الثوري، سواء في مصر أو خارجها. ومع الإجهاض المتتابع من الأجهزة الحاكمة للثورات التي كان دافعها ومحركها الأيديولوجيا الأوزيرية، وعلى مر السنين، بدأت تتكون لدى الجماهير قناعات أن النجاح الأعظم للثورة الكبرى على الظلم إنما يتحقق بعودته مرة أخرى من السماء ليخلِّص الناس من الآلام، بخاصة في عصر الآلام. ومن هنا بدأ الانتظار للمخلِّص أوزير، وبدأت الشائعات المعبرة عن رغبة الجماهير تتحول إلى لون قدسي يؤكد: إن أوزير قبْل صعوده إلى السماء أكد أنه سوف يعود مرة أخرى ليقيم دولة للعدل ومملكة المساواة والإخاء.

وكان تفريغ هذه الأيديولوجيا من محتواها الثوري مهمة أولى وأساسية جابهت الإمبراطورية في البداية، بحيث لا يبقى منها سوى جانبها السلبي المتمثل في انتظار عودة المخلص بهدوء، أو الخلاص الروحي بانتظار الموت ليذهب المؤمن إلى عالم العدل السماوي، ليعيش هناك إلى جوار «أوزيريس»، أو سيرابيس (التسمية الرومانية للإله المصري). وجاء

[٧] د. سيد محمود القمني: **أوزيريس ... سبق ذكره**، ص٢٠٢.

التحقيق ببساطة في اعتناق الطبقات الراقية، والمترفة، والمثقفة، ورجال الجيش، لهذه العقيدة، بعد أن كانوا يشكِّلون تيارًا تابعًا للمدرسة الفلسفية الرواقية، تلك الفلسفة التي اتضح فيها التدخل المباشر عندما تحوَّلت من فلسفة مادية إلى فلسفة روحية، لتقوم بدورها التخلفي الرجعي فتمتزج بالعقيدة الأوزيرية، وتشكلان فلسفة إشراقية صوفية، تفي بالغرض الأمثل للمؤسسة العسكرية الحاكمة، كي يُعطى ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، ومن هنا دخلت على الأوزيرية مصطلحات فلسفية لا تعني الجماهير في قليل أو كثير، أو ربما لم تكن مفهومة لهم أصلًا، بينما انتشر بينهم منها (مع دور الكُهَّان وما يمثِّلونه من قيمة للإنسان العادي) فقط الجانب الإشراقي المتمثل في انتظار الموت خلاصًا. أما الطبقة المثقفة فقد انتشرت بينها هذه العقيدة والفلسفة انتشارًا هائلًا، بعد أن تم إفراغها من الطبقة صاحبة المصلحة في الجانب التثويري، لتصبح العقيدة الجديدة ترفًا روحيًّا لأناس أوجعهم الشبع، يبحثون عن كل الغرابة ويذهبون وراء الأغراب، في بلاد الشرق والاستشراق.

وبعد أن انتهت المدرسة الرواقية المسيَّسة من إنجاز المهمة الموكَّلة إليها، تحولت فلسفة الكلمة LOGOS التي كانت تعني من قبل قانون الوجود، إلى أن تصبح هي سر الوجود، أي أصبحت فلسفة حلولية تنادي بالوحدة العالمية (تحت راية الإمبراطورية بالطبع)، وبالإخاء الإنساني، فقادت الحركة الروحية بزعامة «بوسيديونيوس»،[8] وبعد أن تحولت جامعة الإسكندرية إلى مرتع فلسفي للرواقيين، دمجت الكلمة LOGOS بالابن الإلهي «حور»، استنادًا إلى تماثيله التي تُصوِّره واضعًا سبابته على فمه، علامة على أنه الكلمة.[9] ولما كان «حور» ممثِّلًا لأبيه على الأرض، فقد أصبح الأباطرة الرومان كذلك هم المخلِّصون الحقيقيون لرعاياهم، مثل «نيرون»، الذي ارتفع بعد موته جسدًا حيًّا إلى السماء، بقَسم مغلَّظ من «نوميرو أتيكس»، ومن يشك في «نوميرو»؟[10] ومثل «أوغسطس» الذي قررت لائحة مجلس الشيوخ بشأنه أنه كان صورة تجسدية للإله على الأرض، وقام الفيلسوف «سنكا» يعطيه لقب المخلِّص،[11] حتى أصبحت ديانة أوزير بعد فلسفتها رواقيًّا ديانة

---

[8] أرنولد توينبي: **تاريخ الحضارة الهللينية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٢٤٠.

[9] أبكار السقاف: **نحو آفاق أوسع**، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ج٢، ص٩٥٢.

[10] **نفسه**: ص٩٤٧.

[11] **نفسه**: ص٩٧٣.

البطالمة الرسمية.[١٢] ومعروف أن الإمبراطور هادريان كان أهم المتحمسين لجعلها ديانة رسمية للإمبراطورية،[١٣] ومن ثمَّ قرر الآثاري «أدولف إرمان» أن هذه العبادة انتشرت في كل الأرجاء، لأنها كانت «... تقدم لأتباعها عزاءً أخيرًا في كافة المصائب، وكانت تمنحهم الإيمان بحياة أخرى أفضل، يقضونها في مملكة أوزيريس»،[١٤] حتى إن الكلمة الرواقية تحوَّلت إلى ضلع مقدس في الثالوث، وأصبحت معبودًا انتشر في حوض المتوسط يعزي المسحوقين ويرفِّه عن المترفين، بعد أن صارت فيما يقول أرنولد توينبي «... العقل الخلاق السرمدي، الذي عرف فيه المفكرون الهللينيون الحقيقة المطلقة الكامنة وراء مظاهر الكون.»[١٥] ولم تكن الكلمة سوى الأب ممثَّلًا في الابن، والابن كان حور، وأصبح هو الإمبراطور.

ونتيجة لكل هذا التسارع استطاع الآثاري أرمان أن يؤكد، أنه لم يعد «... في الإمبراطورية الرومانية الواسعة الأرجاء، مقاطعة واحدة لا تُعبَد فيها الآلهة المصرية، حتى استطاع ترتوليان أن يقول: إن الأرض بأسرها تعقد الإيمان اليوم باسم سيرابيس.»[١٦] أما ما أكده عباس العقاد، فهو أن أكثر هذه المقاطعات تأثرًا بهذا المذهب هي بلاد الجليل، حيث وُلد السيد المسيح،[١٧] مما حدا باليهود الناموسيين أو المتمسكين بحرفية التوراة، إلى طرح مثلٍ سار على ألسنتهم يقول: «إنه لا خير يأتي من الجليل.»[١٨]

المهم أن العقيدة الأوزيرية قد استقطبت كل الأساطير الأخرى مثل تلك التي كانت تُنسب إلى «... السحرة الذين يجففون البحيرات بكلمة ينطقون بها، أو يجعلون الأطراف المقطوعة تقفز إلى أماكنها، أو يحيون الموتى»،[١٩] ومن هنا استولى أوزير على

---

[١٢] أدولف إرمان: **ديانة مصر القديمة**، ترجمة محمد عبد المنعم أبو بكر، ومحمد أنور شكري، نشر مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، د.ت، ص٤٦٥.

[١٣] **نفسه**، ص٤٦٩.

[١٤] **نفسه**: ص٤٨٦.

[١٥] توينبي: **سبق ذكره**، ص٢٤٧.

[١٦] إرمان: **سبق ذكره**، ص٤٨٦.

[١٧] عباس العقاد: **حياة المسيح**، كتاب الهلال، عدد يناير ١٩٨٨م، القاهرة، ص٧٧.

[١٨] **نفسه**: ص٩٣.

[١٩] ول ديورنت: **قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٦١م، مج١، ج٢، ص١٦٦.

كل «قصص الشفاء»،[20] وابتلع «أوزير»، الإله الإيراني «ميثهرا»، وأصبح بدلًا منه صاحب «العشاء الرباني المصنوع على هيئة الصليب»[21] وأصبح بدلًا من الإله «ديونزيوس» «صاحب القلب المقدس وابن الإله الأوحد، الذي قتله البشر فحملوا إثم خطيئة عالمية، لا يغفرها إلا الإخلاص، بالإيمان به، وبالتعميد، وبتعاطي جرعات من النبيذ تمثِّل روح ابن العذراء»، فتسري فيه الروح الخالدة، وأصبح هو المخلص المنتظَر[22] عند الجماهير المطحونة، بعد أن ابتلع عقيدة «البوذيستافي»، وأصبح هو وبدلًا منه «... إله الابن ... منقذًا ضحى بنفسه، وراعيًا أمينًا للقطيع البشري الضال».[23] وتحت الاحتلال الروماني، قام اليهود بعدة ثورات فاشلة، فقسَّمهم الفشل فِرقًا، لعل أشهرها: الصدوقية والفريسية. وبرغم الفشل أمام جيوش الرومان التي بلغت حدَّ الاكتمال، فقد ظل الصدوقيون مخلصين لتوراة موسى وقصص الأنبياء السوالف، بل ازدادوا سلفية وتمسكًا بحرفية التقليد، إضافة لكونهم كانوا هم كهنة الهيكل وسدنته، مما حدا بهم على رفض منطق العصر وتغيرات الزمن، فظلوا يحلمون بمملكة داود الغابرة، ثم تصوروا أن هذه المملكة لا بد أن تقوم مرة أخرى على يد واحدٍ من نسل داود ضمانًا لنقاء الدم الملكي، وهذا الشخص الملك موجود، ولكنه مفقود ضائع بين بيوت إسرائيل، وفي حال إعلانه عن نفسه سيقود شعبه بقوة السلاح، ليجتاح قلاع الرومان ويُطبق شريعة موسى. ومن هنا قاموا يفسرون بعض الآيات القديمة بمنهج التأويل، على أنها نبوءات بظهور هذا الملك العظيم عندما تشتد المحنة بالشعب، وسيأتي جبارًا مثل شائول، مقاتلًا مثل داود، حكيمًا مثل سليمان. وفعلًا بدأ العصر يرهص بالنبوءة الصدوقية، ينتظر يهوديًّا يعلن أنه حفيد داود، وعندئذٍ سوف يمسح الصدوقيون بالزيت المقدس مسيحًا، حسب الشرعة التوراتية لصحة التتويج الملكي.

هذا، بينما كانت مقاطعة الجليل في وادٍ آخر، يموج بفلسفة الإسكندرية وفلسفتها الرواقية وعقيدتها الأوزيرية، بحيث رفض أهلها منطق الصدوقيين، بعد أن انكسرت الثورات على رماح الرومان واحدة إثر أخرى، وأصبحت القناعة أنه لا يقدر على الرومان إلا الرب، ولم يعد مُجديًا إلا أن يهبط الرب بنفسه كما هبط لموسى من قبل، ولكن في صورة

---

[20] إرمان: **سبق ذكره**، ص٤٧٧.

[21] العقاد: **الله**، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ص١٥٣.

[22] **نفسه**: ص٤٩.

[23] توينبي: **سبق ذكره**، ص٢٤٦.

روحانية بروح قدس تحل في بذرة بشرية في أحشاء عذراء تنجبه أو تنجب منه ابنًا هو المخلِّص الموعود. وسيكون هو الكلمة والقانون، فكلمة الله نافذة، فلا يحارب ولا يقود جيوشًا، إنما يتكلم بالسلام، ويقيم دولة المحبة التي أرادها فلاسفة الرواقية.

وحدث أن ظهر، في الجليل، وفي قرية من أعمالها هي «الناصرة»، من أعلن أنه قد توافرت فيه المواصفات المطلوبة في المسيح المنتظَر، وهو ما سجلته الأناجيل كما سنرى:

يستهل الإنجيلي «يوحنا» — وهو أحد تلامذة المدرسة الرواقية — إنجيله بقوله: «فِي الْبَدْءِ كَانَ **الْكَلِمَة**، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللهَ» (١:١) وأن «الكَلِمَة صَارَ جَسَدًا **وَحَلَّ بَيْنَنَا**» (١: ١٤). أما كيف حدث ذلك، فهو ما يشرحه الإنجيلي لوقا في إنجيله بالقول «أُرسل جبريل الملاك من عند الله إلى مدينة في **الجليل**، اسمها ناصرة، إلى **عذراء مخطوبة لرجلٍ من بيت داود اسمه يوسف**، واسم العذراء مريم، فدخل عليها الملاك وقال: «… هَا أَنْتِ تَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا، هذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنَ الله يُدْعَى … الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ابْنَ اللهِ» (١: ٢٦–٣٥). ومن هنا لم يراود «بولس الرسول» أي شك وهو ينادي ورجع الصدى منه يردد في أرجاء المتوسط: «**إنه إلهي** يسوع المسيح» (الرسالة إلى رومية، ١: ١٨)، ««**إنه ربنا** يسوع المسيح» (الرسالة إلى فيلبي، ٤: ٢٣). أما بطرس الرسول فقد أخذ على عاتقه نفي أي علاقة للمسيح «ابن الله» بأي أبناء آلهة آخرين في تراث المنطقة، فقام يؤكد القول: «إننا لم نتبع خرافات مصطنَعة، إذ عرفناكم بقوة **ربنا يسوع المسيح ومجيئه**، لأنه أخذ من الله كرامة ومجدًا، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسني: «**هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي أَنَا سُرِرْتُ بِهِ**، وَنَحْنُ سَمِعْنَا هذَا الصَّوْتَ مُقْبِلًا مِنَ السَّمَاءِ، إِذْ كُنَّا مَعَهُ فِي الْجَبَلِ الْمُقَدَّسِ» (رسالة بطرس الثانية، ١: ١٦–١٨). وإعمالًا لذلك أكد يوحنا أن «… الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ» (٦: ٦٩). أما سبب مجيئه عند بولس فهو أن «اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا، لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ، مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا، وقَدْ صُولِحْنَا مَعَ اللهِ بِمَوْتِ ابْنِهِ» (الرسالة إلى رومية، ٥: ٨). وأنه قد «مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا … وَأَنَّهُ دُفِنَ، وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ» (الرسالة الأولى لكورنثوس، ١٥: ٣–٤). وأن من يؤمن بذلك فإن يوحنا يؤكد له أنه سيصبح ابنًا للمسيح خالدًا مثله، «… كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ» (١: ١٢)، وأكد ذات المعنى بولس بقوله: «اللهُ نَفْسُهُ أَبُونَا وَرَبُّنَا» (الرسالة إلى تسالونيكي، ٣: ١١)، وسبب هذه الأبوة عند بطرس هو الحصول على الطبيعة الإلهية الخالدة، أو كما قال: «… لِكَيْ تَصِيرُوا بِهَا شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الإِلهِيَّةِ» (الرسالة الثانية، ١: ٣–٤). وهو ما أوضحه بالقول: «والذي يُؤْمِنُ بِالابْنِ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ» (الرسالة الثانية، ٣: ٣٥).

ومع هذا الاعتقاد الجازم في ألوهية المسيح، أو بنوَّته للإله، وأنه وُلِد من عذراء، وأنه هبط فداء للبشر وتخليدًا للمؤمنين في عالم آخر عوضًا عن عالم الآلام الدنيوي، فقد تلازم مع هذا الاعتقاد اعتقاد آخر عجيب، فهذا لوقا بعد تأكيده عن المسيح «هذَا يَكُونُ عَظِيمًا، **وَابْنَ الْعَلِيِّ الله يُدْعَى**»، يردف القول مباشرةً «وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ **كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ**»(١: ٣٢-٣٣) ثم لا يني يردد أنه «**هُوَ مَسِيحٌ مَلِكٌ**»**(٢٣: ٢)**، وينادي «تبارك **الْمَلِكُ** الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ» (١٩: ٣٨).

أما الإنجيلي متَّى، فيرصد المسيح، آخر النسل في شجرة نسب بيت الملك داود، ليهبط بهذه الشجرة من الفروع إلى الأغصان حتى يصل إلى «... **يُوسُفَ رَجُل مَرْيَمَ** الَّتِي وُلِدَ مِنْهَا يَسُوعُ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ» (١: ١٦)، ولتأكيد أنه حفيد داود الملك، وأنه الملك المنتظَر للجلوس على عرش إسرائيل، فإن مرقس يقول: «مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ، مُبَارَكَةٌ هي مَمْلَكَةُ أَبِينَا دَاوُدَ» (مرقس، ١١: ٩-١٠). ثم هذا يوحنا يحكي أن «فِيلُبُّسُ وَجَدَ نَثَنَائِيلَ وَقَالَ لَهُ: وَجَدْنَا الَّذِي كَتَبَ عَنْهُ مُوسَى فِي النَّامُوسِ وَالأَنْبِيَاء: **يَسُوعَ بنَ يُوسُفَ الَّذِي مِنَ النَّاصِرَةِ**» **(٥: ٤٥-٤٦)**. لذلك اضطر بولس لمحاولة شرح توفيقي يقول عن المسيح: «هو فعلًا الَّذِي سَبَقَ فَوَعَدَ بِهِ بِأَنْبِيَائِهِ عَنِ ابْنِهِ، الَّذِي صَارَ **مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ** مِنْ جِهَةِ الْجَسَدِ، وَتَعَيَّنَ **ابْنَ اللهِ** بِقُوَّةٍ مِنْ جِهَةِ رُوحِ الْقَدَاسَةِ، بِالْقِيَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ» (الرسالة إلى رومية).

مقولة ختامية

ليست هناك ثقافة، أيًّا كانت، يمكن فرضها على شعب من خارجه، إن لم تجد لها أرضًا خصبة تُناسبها، فما بالنا ومنابت هذه الثقافة تضرب بجذورها في أعماق تاريخنا القديم، وأن كل ما حدث هو أن العبريين قد تمكَّنوا من استخدام هذه الثقافة كأداة للوعي بتاريخ المنطقة، وهم الغرباء، من أجل السيطرة عليها، بدءًا بالسيطرة الروحية، وتوجيهها وفق المخططات المطلوبة، بينما نحن اليوم نرفع شعارات الثقافة القومية. والمهول في الأمر أننا لا نعني بهذه الثقافة — في الأغلب الساحق — سوى جزء من تراثنا، هو بالتحديد الجزء الذي تم تهويده وأُعيد تصديره إلينا، مما أدى بنا إلى وعي مزيف بحقيقة تراثنا. بينما الوعي الصادق بأصالتنا يعني، في رأيي، الوعي بتاريخنا كله وعيًا ناقدًا، وألا يقتصر على فترة محددة من هذا التاريخ. وأن غياب الوعي الصادق بالتراث الصادق بالتاريخ الصادق، لغياب العقلية النقدية، هو الخطر الحقيقي الذي تتعرَّض له هذه الأمة، وهو ما أتصور د. جواد علي كان يعنيه بالتعبير: «شر أنواع الاستعمار.»


هنداوي